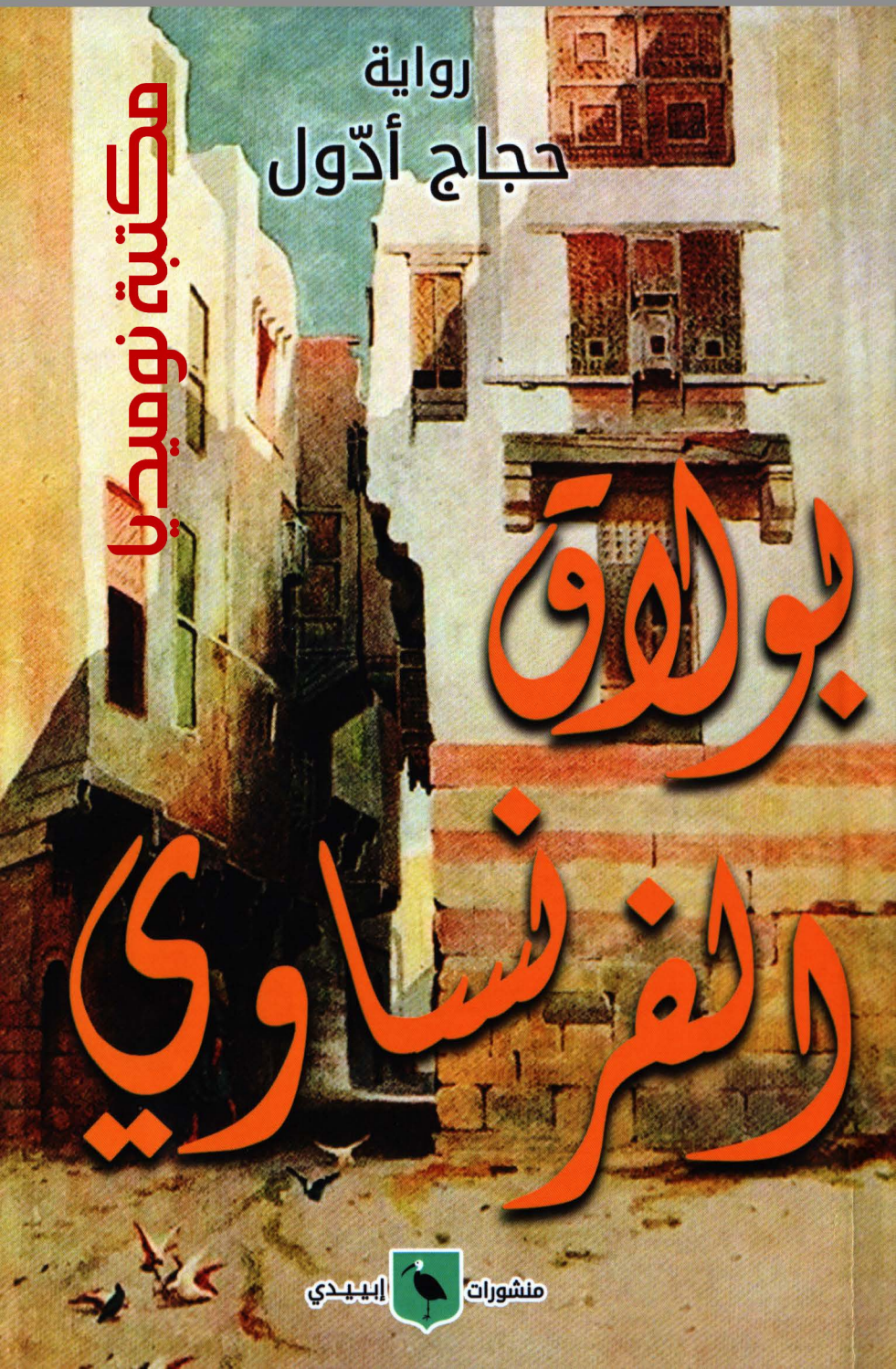
مكتبة نوميديا
رواية
حجاج أدّول
بولاق الفرنساوي
منشورات إبييدي

بولاق الفرنساوي

رواية

حجاج أدّول

منشورات إبييدي

عنوان الكتاب: **بولاق الفرنساوي**

تأليف: **حجاج أدّول**

الترقيم الدولي للكتاب **ISBN 9789776892415**

التصنيف الموضوعي (ثيما): رواية **Thema Codes: F**

الطبعة : **الأولى - 2022** رقم الإيداع : 2022/2668

التحرير والتدقيق اللغوي: **إبييدي بوك داتا ibiidi BookData**

لوحة الغلاف:

ملصق عن مصر، منطقة بولاق 1903، روبيرت تالبوت كيلي.

تصميمات إبييدي

ماري سمير لمعي

خدمات إبييدي بوك داتا للنشر

ibiidi BookData Publishing Services

www.ibiidibookdata.com

Windsor، UK & Alexandria، Egypt

منشورات إبييدي

www.ibiidipublishing.com

الناشر : **منشورات إبييدي - إبييدي مصر**

سموحة - الإسكندرية info@ibiidipublishing.com

/ibiidiPublishing /ibiidiPubAR

/ibiidipublishing

اطلب جميع الإصدارات من www.ibiidi.com

© جميع الحقوق محفوظة للناشر و أي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو الكترونية أو أي وسيلة سمعية أو بصرية دون موافقة كتابية، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

إهداء

إلى محمد فهيم نصار. زميل ورفيق سنوات الحرب السبعة

رحمه الله

حجاج أدّول

1-في بولاق الفرنساوي

حي بولاق أبو العلا من أشهر وأعرق أحياء القاهرة الشعبية. وعلى أرضها بُني جامع أبو العلا الراسخ في منتصف الحي. وبولاق أبو العلا حي ذو جناحين. بولاق ماسبيرو، ونال اسمه هذا لملاصقته لمبنى الإذاعة والتليفزيون، الشهير باسم ماسبيرو، الجناح الثاني هو بولاق الفرنساوي. ولقب الفرنساوي بسبب تخطيطات وأحداث أسالت دماء في شوارعها، خلال حملة نابليون الفرنسية، أما الشارع المهم، الفاصل بين قسمي بولاق أبو العلا، فهو شارع الملك فؤاد الذي تم تأميمه وتسميته شارع 26 يوليو.

من أهم العلامات الفارقة والتي تجمع جماهير قسمي بولاق، هي سينما (علي بابا)، سينما أنيقة رشيقة المبنى بسلمها الحلزوني الخارجي الذي يصل لغرفة ماكينات العرض. سينما حلوة المنظر عتيقة التواجد، أضافت جمالاً على بقية جماليات بولاق. شاهد البولاقيون على شاشتها أفلامًا مصرية وهوليودية رائعة، خاصة أفلام طرزان وأفلام الكاوبوي. وفيها شاهدوا فيلم زوربا اليوناني. أفلام دفعتهم للتفكير ليس خارج صندوقهم البولاقي فقط، بل خارج البلاد. عرفوا أن هناك عالمًا كبيرًا رحبًا، هم ركن من أركانه، عالم شاركت تلك الأفلام في تشكيل وعيهم به. الأفلام شاركت في تشكيل وعيهم.

الآتون لمشاهدة الأفلام حقيقة هم الأغلبية، أما الأقلية البسيطة، فقد أتوا لمآرب أخرى. فعلى مقاعدها وأجنابها والإضاءات شغّالة، تفت الابتسامات السريعة تومض وتختفي مثل البرق، والإشارات المخفية لا يلتقطها سوى من وُجّهت له الإشارة، أو الخبثاء الذين يتابعون تلك الخصوصيات، فيلتقطون الإشارات ويحقدون على مُلقيها ومتلقيها. أما حين تنطفئ الأنوار وتعرض الأفلام في الظلام السائد في الصالة والبلكون، وينشغل الأغلبية بمتابعة أحداث الفيلم، تختفي الابتسامات عند الأقلية وتمتنع الإشارات، لتتم أنواع مناسبة من التلاقي بين ثنائيات العشاق، وتبقى هذه الحركات والخطفات في ذاكرتهم طوال العمر، ذكريات تسعدهم وتؤكد لهم أنهم عاشوا حياتهم بالطول والعرض. سينما علي بابا العتيقة، أغلقت وأهملت فصارت أطلالاً كما حياتنا.

وبولاق أبو العلا بجناحيها تتوسط منطقتين من أحلى وأهم وأغلى مناطق القاهرة! ففي شرقها مباشرة تتلألأ منطقة وسط القاهرة. القاهرة الزاهرة التي أبدع في تخطيطها وعمرانها الخديو إسماعيل. تطلّع الخديو حالمًا بأن تكون القاهرة صنوًا لمدينة النور باريس. فبُنيت بنايات وسط البلد في روعة تسعد الفؤاد وتمتع النظر. وسط القاهرة لا يفرق بينها وبين بولاق سوى شارع الملكة نازلي، الذي شطب على اسمه وقالوا إنه شارع رمسيس. ثم شارع الجلاء المزدحم. أما غرب بولاق، فالنيل نجاشي أشهر أنهار الدنيا يمر رشيقًا لها. بولاق بمبانيها البسيطة على الضفة، تطل ناظرة للنيل ة والكوبري الحديدي، هو كوبري أبو العلا الذي بناه الفرنسي إيفل، إيفل المصمم والباني الأساسي لبرج إيفل الباريسي الشهير.

فهل بسبب المهندس الفرنسي الذي بنى الكوبري، رسخ اسم بولاق الفرنساوي؟! ربما.

كوبري أبو العلا يتخطى النيل ليصل لجزيرة الزمالك. ويقال إن الزمالك كلمة ألبانيةُ تعني العشش البوص. ويُقال التسمية معناها زهرة. حقيقة.. الاسم الثاني يليق بها. فهي زهرة يانعة، زهرة فتية تقاوم حتى الآن عوامل القبح التي تغزو جماليات مصر منذ أكثر من نصف قرن.

الزمالك من أفخر أحياء القاهرة، يسكنها أغنياء الأغنياء، وقد شيدوا فيها القصور والفيلات الرائعات. وبالزمالك أيضًا عمارات عالية فاخرة، تصاعدت على ضفة نيلها الزملكاوي. هذه العمارات تطل على النيل في إباء، وتطل أيضًا على حي بولاق في استعلاء. نعم.. هناك فرق بين حي شعبي يستوطنه الحرافيش، وبين حي أرستقراطي يسكنه البكوات والبشوات وأغنياء الخواجات، أي عِلية القوم. وأهالي بولاق بعضهم ينظر للضفة الأخرى حيث الزمالك في حسد، والبعض في اشتهاء يتلمظ تلمظ المحروم وهو يراقب امرأة حسناء. والبعض يأمل ويعمل ليمشي فوق كوبري أبو العلا، ليسكن في الزمالك، لا ليعمل عند سكانها الأكابر! ولم يحقق هذا الحلم سوى عدّة شخصيات بولاقية، منها صديقنا حسن زيادة.

(((((())))))

2-معركة الكايبوي

عليوة الزوربا مَعْلم من معالم بولاق الفرنساوي، وهو الذي في بداية شبابه، أعاد عهد الفتوات إلى المنطقة، وأصر أن ينادوه بلقب الفتوة، لا بكلمة الصايع المهينة. لأن صايع تعني الهلفوت كثير المشاكل، وأيضًا الكسول ومن ليس له عمل يكتسب منه، أو ربما عمله إرهاب الناس وأخذ جانب من مكاسبهم. وجمع صايع يكون صيّع، وهو اللقب الذي سُكّبَ عليه وعلى أتباعه في سنوات ما.

أصررت أن أشاهد وأجلس في المقهى الذي هاجمه عليوة هو أتباعه على ظهور الحمير! عليوة وقتها كان في العشرين، ولم يكن د ترق ونال رتبة الزوربا بعد.

وكالة الخردة على أطراف بولاق الفرنساوي. تاجر خردة غني فتري، ويقال على تاجر الخردة لقب معلم. طلب عليوة لينضم مع ية فتواته، لحمايته والتصادم مع فتوات منافسيه من المعلمين، اصة أحدهم الذي أتى بمجرم شرس يُسمى مَكْمكْ، ليكون على رأس واته. قبل عليوة هذا العمل الذي در عليه دخلاً فخمًا لم يكن لم به. أقل من عام وصار عليوة هو زعيم فتوات معلمه.

الفتوة مَكْمكْ أكبر سِنًا وأقوى جسدًا من عليوة. مَكْمكْ استهزأ يوة وأطلق عليه أقوالاً ساخرة أضحكت مستمعيه. عليوة قرر

أن يشعل معركة ضد مَكْمكْ ليعلمه الأدب. أخذ الإذن من معلمه ليهاجم المقهى الذي يرتاده مَكْمكْ وعصابته. المقهى يقع على طرف بولاق الفرنساوي حيث النيل.

وعليوة كان ومازال مفتونًا بالقتال الشرس على الخيول في أفلام الكاوبوي، والتي ينطقونها هنا الكايبوي. سحرته مطاردات الهنود الحمر. فقرر أن يحاكيها في الهجوم على مقهى الأعداء. أتى بعشر من الحمير القوية. أتباعه اثنا عشر، فقال لاثنين من عصابته أن يردف كل منهما زميلاً له خلفه على ظهر الحمار. استعدوا وتأكد عليوة أن أتباعه كل منهم ممسك بعصاته الغليظة، وهي سلاح الفتوات الأساسي، ثم المطواة وهي السلاح المساعد. الوقت وقت الغروب حيث يجتمع رجال وفتوات الخصم في المقهى.

سرب الحمير يسير الهوينا، لافتًا أنظار السكان الذين لا يعلمون، لماذا هذا السرب الحميري ومن عليه من الشباب الصيِّع؟ عليوة وأتباعه بالملابس البلدية، وعلى رأسهم طواقي بشكل واحد ولون واحد، ولماذا الصايع عليوة يتقدم على حماره ينظر للأمام في شمم وتباهٍ وعزيمة، وكأنه قائد مقدم على فتح عكّا.

ولما وصل السرب الشرس لكورنيش النيل، صاح عليوة وهي يشير بعصاته للأمام..

-هجوم. هاااا.

أسرع بحماره والتسعة حمير خلفه محملةً بالأتباع الفتوات، يصرخون صرخات الهجوم المفاجئ. ضربات حوافر الحمير على الأرض، أسعدت قلب عليوة، تماهت مع حوافر خيول الكايبوي،

وصرخاته هو أتباعه خالها صرخات الهنود الحمر وهم يهاجمون قافلة للبيض. سرب الحمير كبس على المقهى قبل أن يستعد فتوات الخصم للقتال. الحمير توقفت على حافة المقهى، ووثب الفتوات عن ظهرها وانهالوا ضربًا على أفراد العصابة المضادة. أما عليوة فقد أصر على حث حماره حتى اقتحم المقهى ووصل لمنتصفه، مَكْمكْ كبير فتوات العدو يجلس هناك في عظمة. جحظت عيناه وهو يرى هجوم الحمار وعلى ظهره عدوه عليوة. فقد ثوانٍ من هول المنظر العجيب الغريب، متأخرًا هب من جلسته وأمسك بعصاته ليصد الهجوم المباغت. عليوة كان قد سبقه وثب عن ظهر حماره سريعًا وعصاته عالية، وأنهال ضربًا على خصمه. المعركة بينهما معركة خاصة مختلفة عن بقية الفتوات في معركتهم.

هرب رواد المقهى الذين ليس لهم في المعركة لا حمار ولا جمل. صراخ الضاربين وصرخات المضروبين، اختلط بنهيق الحمير المنزعجة مما يجري، ولا تدري أنها من ضمن هذا الهجوم الكايبوي. سقط فتوات الخصم جرحى أرضًا، ومن لم يصب ارتمى أرضًا معلنًا استسلامه. مَكْمكْ كان يتقلب أرضًا متألمًا من توالي الضربات التي ينالها في رأسه وبقية جسده، لكن تألمه أساسًا من ضربة أصابت كوع يمناه فكسرتها.

كان الانتصار مشهودًا وحكت عنه أجيال متوالية من سكان بولاق الدرنساوي، أما عليوة فلم يكن يحك ترفعًا، استكفى وهو وسط اتباعه أو غيرهم، أن يستمع للغير يحكون وقائع المعركة المشهودة، ولا يقاطع إلا إذا تخطى الحاكي تفصيله يراها عليوة مهمة. وحين تمر الأيام ولا تأتي سيرة المعركة، يأخذ عليوة الحوار للمعارك القديمة،

فينبري أحدهم للتذكير بموقعة هجوم الكايبوي. يصمت وقتها عليوة ولا يعقب تواضعًا منه. لكن إن أخطأ الحاكي أو تدخل أحد المستمعين، وقال إنها معركة الحمير. يلعن عليوة سنسفيله، خاصة لو القائل يقصد إثارته. فقد أطلق أهل المنطقة على تلك المعركة معركة الحمير، لكن عليوة يصر على تسميتها بمعركة الكايبوي.

بعد معركة الكايبوي، هجر عليوة منصب الفتوة، ومهما يضربه الفَلَسْ، لم يفكر في العودة، فما فعله بمَكْمكْ يحز في ضميره، يمنى مَكْمكْ أصبحت عديمة الجدوى تمامًا، صار مَكْمكْ صاحب عاهة. ومرت شهور عديدة على معركة الكايبوي. مَكْمكْ طرده معلمه فأصبح عاطلاً ثم عمل في أعمال تافهة.

ذهب عليوة إلى مَكْمكْ وقبل رأسه، لكن مَكْمكْ لم يقبل اعتذاره، نظرات عينيه كانت تبين أنه سينتقم. استهتر عليوة الساذج بمَكْمكْ ذي الذراع الواحدة، خاصة أن الذراع المهيضة هي اليمنى. بعد سنوات أربع، فاجأه مَكْمكْ من خلفه وطعنه بسكين في وجنته اليسرى وأصابه إصابة جسيمة، تركت التشوه الواضح في وجه عليوة. وقتها عليوة أمسك بمَكْمكْ وحمله ورزعه أرضًا، وبساقه صار يضربه في وجهه حتى أدماه، يفعل هذا وكف يسراه تمسك بمكان الطعنة المؤلمة الدامية. مَكْمكْ لم يكن يشعر بقسوة ضربات قدم عليوة، يصيح في هيستريا..

-خدت بتاري. خدت بتاري.

أصر عليوة على رحيل مَكْمكْ من بولاق الفرنساوي كله. وقد كان.

(((((())))))

3- عودة لبولاق الفرنساوي

بولاق الفرنساوي ذاك الحي العريق كان ملجأي ومأربي خلال فترة تجنيدي. هذا في نهايات ستينيات القرن العشرين وبدايات سبعينياته. حفظت المكان من كثرة تواجدي فيه. وزرت بولاق الفرنساوي كثيرًا بعد انقضاء سنوات الحرب، زيارات خاطفة ذوات شجون. ومع كل زيارة أجد التبديل والتغيير للأسوأ، كما أحس بالتغيير، تغيير في شكلي وفي نفسي. تغيير في تفكيري. فالشعر الأبيض والتجاعيد، وترهل الجسد وبروز الكرش الخفيف، وتغييرات ربما أكثر منها داخل النفس وداخل العقل. أي أن التغيير في أنا كما التغيير في بولاق الفرنساوي.. للأسوأ. وكانت الحياة الأدبية التي عشتها تسير أيضًا من سيئ لأسوأ.

من حظي أن خالتي تسكن بولاق ماسبيرو، فالنوبيون المُهَجرون ن موطنهم قسرًا، وأنا من جيلهم الثاني، سكنوا في مناطق معينة في لإسكندرية والقاهرة، في القاهرة سكنوا بولاق ماسبيرو القريبة من ي الزمالك حيث الباشوات والبكاوات والخواجات الذين يعملون ندهم طباخين وسفرجية وبوابين، ووقتها كانت تلك المهن مع سواقة، هي أفضل وأنظف المهن لكل الآتين من الأرياف. عرفت ولاق ماسبيرو تمامًا. ومن جمال حظي، أني خلال فترة تجنيدي، ملت نصّار وصادقته، ونصّار من أبناء بولاق الفرنساوي، فعرفت ولاق الفرنساوي تمامًا. صرت خبيرًا في بولاق سواء ماسبيروها أو

فرنسيها، لكن الجانب الذي ارتبطت به عميقًا، وصادقت فيه بشرًا كثيرين من كل الأعمار والأنواع، هو بولاق الفرنساوي.

نصّار وحسن زيادة تصادقا من صغرهما، وأنا صرت من أقرب زملاء نصّار خلال خدمتنا في الجيش، ولما طالت أعوام التجنيد، تحولت الزمالة إلى صداقة، ولما شاركنا معًا في حرب الاستنزاف، وأوشكنا مرارًا على الموت، تعمقت صداقتنا وصارت حصنًا متينًا. وحين نجحنا أنا وهو في جعل إجازاتنا تتزامن معًا. في الغالب إجازاتنا قصيرة وتُعد بساعات قليلة، 24 ساعة مثلاً. أبات عند خالتي في بولاق ماسبيرو، وهو في بيته بحي بولاق الفرنساوي، وتكون سهراتنا في بولاقه هو. وإن كنا في إجازة تعد بالأيام، يأتي معي لبيتي السكندري، سواء كنا في الصيف أو الشتاء، فأنا أسكن في شقة غَلْبانَة أعلى بيت حالته كَحْيانَة. مرة واحدة أتى معي لزيارة عائلتي في قرى الشتات.

بعد إجازتين في بولاق الفرنساوي، تصادقت مع أصدقاء نصّار، ومنهم حسن زيادة، الوسيم الأنيق، وعليوة الذي اشتهر بلقب الزوربا، وهو الفتوة القديم العاشق لجلبابه البلدي، ويقول إنه يخجل من ارتداء بنطلون يحدد مؤخرته! عليوة علامته التي لا تفوت على الأعين، وهي عظمة خده اليسرى المشوهة، لكن هذا التشوُّه لم يُشَلْفِطْ وسامة وجهه الرجولي، مطلقًا، لكنها أضافت سنوات على عمره الحقيقي. وتعرفت على غيرهما وصرت من مريدي هذا الحي الشعبي المتوقد بنسغ الحياة. حي يمثل كل تفصيلات البلد، فيسكنه تنويعات المصريين من شتى الأنحاء. رجال الحي وشبابه نستطيع أن نطلق عليهم اللقب الشعبي (الجدعنة)، أي الشهامة والمروءة مع

حلاوة اللسان في السلام، وعنفه في الصدام. عليوة الزوربا وعمره وقتها يقارب الأربعين، لكنه نظرًا للتجارب القاسية التي مر بها ومرّت به، وبتشوه خده يظهر وكأنه يقارب الخمسين. لكن هل بولاق هذه جدعنة صرفة؟ أبدًا. حدثت وتحدث فيها خباثات ومعارك ولسانيات فظيعة.

في الستينيات أغلب البولاقية الرجال يرتدون الجلباب البلدي، سواء الصعيدي أو النوبي أو الفلاحي التابع لناس الدلتا، ولكل منهم نوعية خاصة من العمائم، أما الملبس الأفرنجي فهو ينتشر سريعًا، خاصة بين الشباب ومنهم أصدقاء نصّار.

نساء بولاق هن أجمل ما في الحي، ويمثلن خليطًا من نساء الطبقات الفقيرة في مصر. كوكتيل ألوان من الأسود الصريح، ثم الأسمر الفصيح، ثم الأسمر الطحيني الرايق الفايق، وحتى نصل للأبيض الواضح الصادح. أغلبهن وقتها عندما يخرجن من بيوتهن إلى لسوق وغيره، يرتدين الملاءات اللف السوداء، والملاءة لها طرق شتى للاستعمال، فهي حشمة إن أرادت التي ترتديها ذلك، وإن أرادت فهي ملبس مثير لئيم يفوق ملابس العري إغراءً. فالحريفة منهن، يمكنها تجسيد ما ترغب في تجسيده من بدنها، هذا والملاءة تغطي يا مُحَمْلِقْ! وبمكر منهن، يكشفن من أجسادهن مساحات معينة في ومضات سريعة صعبة المنال، ليصاب الذكور المتابعين بالخبال. إنهن محنكات في فن الإغراء وفي نفس الوقت لا لوم عليهن، فكل شيء تقريبًا تحت غطاء الملاءة، وما ظهر قد ظهر سريعًا وبدون قصد. إنها لعبة متفق عليها، هن يتظاهرن بالبراءة، ومعشر الرجال يدعون أنهم

لا يتابعون، ولا يتماكرون لخطف لقطة من البدن المتجسد والمخفي معًا، والذي ينكشف ويختفي سريعًا كالبرق، ويضرب في الحشى زاعقًا كالرعد. وبالطبع الآتيات حديثًا سواء من الصعيد القريب، أو من النوبة البعيدة، متحفظات إلى حين، فالزمن غلاب ووقعه أخطر مما يظن الظان.

سهراتي في بولاق الفرنساوي، لكل منها خاصيتها الحلوة، ولا تحلو إلا بتواجد شخص ما، أو بعدم تواجد شخص ما! فالسهرة التي مع حسن زيادة يجب أن تكون مقصورة على نصّار وأنا، وهي سهرة لها طعم أنيق رقيق، والسهرة التي فيها فايق بتاع البنات، فقطعًا لن يتواجد حسن زيادة! فايق بتاع البنات يغار من زيادة ولا يطيقه. أما أساس معظم السهرات، فيكون كبيرها وفاكهتها هو عليوة الزوربا، وهي سهرات ذات طعم حرّاق، والشرط عدم تواجد محمد الضايع.

إن كنا بعد السهرات التي تحوي كؤوسًا من الخمر، وهي سهرات قليلة للفلس المقيم معنا جميعًا. سنعود لمعسكرنا مبكرًا أنا ونصّار فيا ويلنا من الصداع وعدم النوم وآثار خمر الهُبْهُبْ التي تجرعناها. أسرع أنا إلى بيت خالتي وأتجرع عدّة كؤوس من المياه ثم ارتمي نائمًا على كنبة ضيقة. نصف ساعة أو أكثر قليلاً، يوقظني منبه التبول. أسرع إلى محطة القطار والنهار بالكاد يظهر. أغلب ركاب القطار شباب مجند. ينامون على مقاعدهم، والبعض يفضل النوم على الأرفف لتتمدد أجسادهم براحتهم. أقل من ساعة وننهض كلنا مكهربين خشية فوات محطتنا الصحراوية. نثب من القطار قبل أن يستكمل وقوفه. نتسابق جريًا لنلحق بسيارات أجرة قديمة معتقة

تنتظرنا، سيارات لا نعلم كيف تسير، وهي بحالتها التي تشبه حالتنا، سيارات منهكة على طرق مُهكّعة، تسير تكحكح وكأنها مصابة بالربو، ونحن متزاحمون كالسردين بداخلها وخارجها وفوقها أيضًا.

المهم.. السهرات البولاقية أسبور بلدي. والبلدي يُوكل كما قالوا ونقول. نسير في الشوارع منها الرحبة ومنها الضيقة. البيوت في الغالب قصيرة بسيطة. نتابع حلاوات نساء بولاق.. فهن في البيوت وفي الشرفات والنوافذ وعلى أبواب البيوت، يرتدين الجلابيب البسيطة بأقمشتها الرخيصة، فلا شعر يُحجب، ولا عنق وما تحته من أعلى الصدر مخفيان، وبالطبع ولا الذراعين ظاهرها وباطنها. وفتيات بولاق الشابات اللاتي في مقتبل العمر، حين يذهبن إلى وسط القاهرة القريب من بولاقهن، يرتدين الملابس الإفرنجية، ويتمخترن في ترفع وكبرياء ساذج، لكن مهما أدعين أنهن من فئة (الألافرنجة) فهن مكشوفات تمامًا، طبعهن البلدي يفوح منه عبق فتّة لحمة الراس ورائحة البصل، والمخلل المترع بلذائذ بولاق الحرّاقة.

نجلس في مقاعد هزيلة في قهوة سلامة، يلاحظ الجميع أنني وأنصار نتابع الجميلات العابرات بتشوق واضح، نضحك ونشير لهم لأننا محرومون من الجنس الناعم، ليس فقط جنسيًا، بل إنسانيًا، فالحياة الذكورية فقط، ماسخة تجلب الضجر وتشعل التهاب الأعصاب.

في أول الليل سواء رغبنا أو لا. نستمع للأغاني التي تبث من أجهزة المذياع المنتشرة هنا وهناك، أغلبها لعبد الحليم حافظ وشادية، أحلى ما يناسب المكان هو أغاني عبد المطلب ومحمد قنديل. وبعد

أن تختفي نداءات الباعة الليليين المبكرين، لتتصاعد أم كلثوم، ثم ننسى ثومة مع تصاعد أعجب استغاثة مغناة. سكير الدهر صديقنا العجيب محمد الضايع، عائد من سهرة في مكان بعيد. عائد لمنزله وهو سكران تمامًا، يغني بائسًا معترفًا بخيبته..

-أنا اللي مالي ضاع، ومال الناس ضاع مني.. يا دهوتيييي.

والشخصيات البولاقية التي صادقتها عميقًا، وأثرت في تمامًا وأثرت فيها، ودفعوني هم للتفكر وحيرت أنا فكرهم، وهم بفطرتهم البسيطة والعميقة، شحنوا وجداني فكان لهم تأثير على أدبي فيما بعد. صعب رصدهم جميعًا، أذكر فقط الثلاثة الأهم..

نصّار.. عليوة الزوربا.. حسن زيادة.

(((((())))))

4-مع نصّار خلال سنوات المجد والشقاء

على ضفة القناة، في منطقة الدفرسوار تحديدًا، كان أول موقع قتالي لي، وأول معركة أخوضها. وفي نفس المكان كان أول لقاء بيني وبين نصّار. وفي الدفرسوار تكون قناة السويس في أضيق حالتها، بحيث نكاد نتبين ملامح جنود العدو! وبناء على قرب ضفتي القناة من بعضهما، تكون هذه المنطقة من أخطر الأماكن وأشرسها خلال المعارك. جاءنا نصّار. كنت أسبقه في كتيبتنا المقاتلة. أنا عريف مقاتل حكمدار طاقم رشاش. معي العريف عبد الشافي والعريف دانيال. دانيال بعد أن تعمقت صداقته مع نصّار، كونا دويتو إطلاق قفشات عليّ، لأن كلاً منهما منفردًا لا يستطيع مجابهتي.

صباح يوم رائق وجدت الرقيب مسعد مقبلاً بطوله الفارع ووجهه المُحْمر دومًا، آتيًا ناحيتنا، وبجانبه جندي نحيف يكاد أن يكون هزيلاً. الجندي يحمل مخلته، أي يجيء ليبقى، فالمخلة هي لصرة الجلدية الكبيرة التي تحوي كل ما يحتاج.

اقتربا مني. وقبل أن يتكلم الرقيب مسعد كانت عيناي ترصدان لدي يسير معه وسينضم لطاقمي. وجه قمحي رومانسي لطيف، مع صفرار خفيف. تحيط به هالة من شجن آسر. تبينت فيما بعد، أن ملامحه وكأن الرسام العظيم مودلياني قد رسمه وضمه لشخصياته لحزينة. ثم بَعد البعد، تبينت أن حياة نصار مترعة بالحزن مثل حياة مودلياني.

-صباح الخير.

-صباح الخير يا شاويش مسعد.

-دا عريف نصّار. ينضم لطقمك.

-أهلاً وسهلاً.

تركنا الشاويش مسعد وعاد. جلسنا ثلاثتنا معًا، فالرابع عبد الشافي يقف خلف رشاشنا متأهبًا لأي طارئ. نصّار الإرهاق بادٍ عليه، لكنه لم يشكُ، ولم يقل أية كلمة عن التنقلات التي تنقلها وأتعبته حتى أتانا. ولم يقل أنه جائع ويحتاج كوب شاي أولاً. نحن بالسليقة أعددنا الشاي لنا كلنا. بصفتي حكمدار الطاقم أخذته وصعدنا حاجز مترين من الرمال تخفينا عن العدو، وعلى قمتها يربض رشاشنا، عرفته بعبد الشافي. أطلعته على مجرى القناة وخلفها الضفة الشرقية المحتلة. بينت له المساحات التي يجب أن نغطيها بطلقات رشاشنا في حال المعارك. وحدث بالفعل أننا اشتبكنا مع العدو عدّة مرات. كان نصّار قويًا شرسًا رابط الجأش.

صرنا صديقين حميمين. ندخن السجائر ونرتشف الشاي الساخن. نضحك على بعض النوادر التي قابلها كل منا خلال الأيام الأولى من التجنيد، حيث كنا نتلمس خطواتنا بهيبة وشيء من التوتر. الغريب أنه من بداية لقائنا وحتى افترقنا بعدها بسنوات طويلة، كان الأسى خلفية كل اللقاءات، وكل الذكريات التي عشناها معًا حتى التي كنا نضحك فيها!

من الحكايات التي حكيتها لنصار، حكاية صديق طفولتي صلاح، الذي جُند وهو الآن في كتيبة قتالية. تقدم صلاح لخطبة جارة أحبها، لكن أباها رفضه بإصرار وبلا سبب! أبوها لا يطيق صلاح هكذا من الباب للطاق. بات نصار يريد مقابلة صلاح من كثرة وعمق حديثي عنه.

أولى معاركنا ضد العدو كانت نهارًا. وبالنسبة لي ولطاقمي هي أول معركة نخوضها، أما زملاؤنا القدامى، الذين قاتلوا في اليمن، ثم في كارثة 1967، فلا يستطيعون إحصاء المعارك التي خاضوها. المعركة معركة مدافع متنوعة منها الهاونات. نحن علينا الانتباه تمامًا، ربما حاول العدو العبور إلينا خلسة. الانفجارات مدوية ولم نكن قد ألفناها حينها. ساعتا زمن وانتهى الاشتباك. مازلنا في توتر، ثم هدأنا حين تأكدنا أن كتيبتنا لم يصب منها أحد، ثم تعجبنا.. سطح القناة مغطى بالأسماك النافقة! دانات سقطت في المجرى أدت لموت كل أسماك المنطقة. المنظر كان جميلاً بشعًا، تمامًا مثلما شاهدت بعد سنوات في فيلم (عندما تطفو الأسماك) والفيلم يتخيل أن قنبلة ذرية سقطت في البحر بجوار جزيرة يونانية، فأدت لموت الأسماك وطفوها على سطح البحر بالألوف.

وكما كانت ملامح نصّار قد تسللت لقلبي من الوهلة الأولى، حكي لي نصّار بعد شهور، ما يقارب هذا عندما شاهدني لأول مرة. ـوني الأسمر كان أول ما التقطه قلبه. ثم أمور أخرى. ربما أكون .ومانسي المظهر مثله، وقوي الدواخل مثله، وربما أكون شرسًا في لقتال بخلاف مظهري.. مثله. لكني لست مثله في تحمل المحازن لإنسانية.

نصّار عندما أتانا كان عريفًا مجندًا، أي بشريطين على ذراعه. وأنا مثله عريف. لكن أنا الأقدم في الكتيبة، وعليه أنا حكمداره ويكون تحت أوامري، من ضمن نوادر ضحكنا، كنت أمزح معه وأعطيه الأوامر وعليه تنفيذها، مثل تنظيف الملجأ الذي يأوينا، أو تحضير الشاي، أو الذهاب للمطبخ لإحضار وجبات طعام الطاقم. طبعًا كانت أوامر مزاح، وفي نفس الوقت عليه الطاعة وهو يسبني ببعض السباب الخفيف، فقد صرنا أصدقاء، لكن بعد شهرين تقريبًا، وقيادة سريتنا تراجع أوراقنا، اكتشفوا أن نصّار يسبقني في التجنيد بيومين.. إذن يكون هو الحكمدار وأنا تحت إمرته! ففعل بي ما فعلته به. وهكذا الأيام دِول.

ننتقل من ضفة الدفرسوار إلى ضفاف بحيرة التمساح التي يمر فيها مجرى القناة. طاقمنا اختاروه ليكون على أخر لسان التمساح. وهذا تقدير لكفاءتنا. يزاملنا مدفع مضاد للدبابات وفصيلة من الجنود على طول اللسان الممتد. اللسان في الشتاء جميل، وفي الصيف أخر جمال. في هذا اللسان تم رفع عدد من السفن الغارقة خلال الحروب السابقة، ووضعوها على رمال اللسان. وكلها إما مائلة على جانبها وإما شبه مقلوبة. تحت هذه السفن المعطوبة، مساحات شاسعة من الظل الجميل، حيث الهواء المرطب صيفًا، وغير الضار شتاء. فاللسان من الناحية الجمالية، أروع من بحيرته الجميلة بحق، وبالفعل بعد الحرب صارت البحيرة واللسان من أجمل الأماكن صيفًا وشتاء بالنسبة للإسماعيلية وضواحيها، لكن خلال القتال، هو مكان خطير نهارًا، بالغ الخطورة ليلاً، اللسان جانب منه يطل على البحيرة وجانب يطل على مجرى القناة. فيمكن لجنود العدو من ضفادع بشرية، أن يتسللوا ليفاجئونا سواء من الأمام أو من الخلف.

وضعنا الألغام وحفرنا مسافات من الخنادق وعمقنا في الأرض في أماكن ستكون ملاجئنا. والخنادق وأماكن الإيواء بعيدة نسبيًا عن السفن الملقاة، لماذا؟ هذه السفن حديدية، وحين تصيبها دانات المدافع، فالشظايا الرهيبة، ستضرب في جدران السفن وتتواثب مجنونة في كل مكان بداخلها وخارجها، وكل من يلاصقها لها وقت الاشتباكات، سيُقتل ببشاعة.

مرت أشهر الشتاء هادئة، ثم شهر صيف رائع. تصادقنا مع أفراد طاقم المدفع المضاد للدبابات الرابض وجماعة المشاة وهم ملاصقون لنا. أقربهم لنا اثنان.. فاروق. هو إنسان بسيط طيب. في أي وقت عندما يقابل أي زميل من كتيبتنا، يقول مبتسمًا اللازمة التي لا تفارق لسانه..

-كل سنة وأنت طيب.

والثاني الجندي حسين. حسين كلما وجد فرصة هدوء وأوامر بعدم إطلاق النار، يسرع ليكون مع طاقمنا. نصّار أقربنا لحسين. وحسين ذكاؤه واضح، لكنه بالغ الطيبة بادي السذاجة، فقال نصّار عنه..

-حسين ابن موت!

ولم أكن أعرف وقتها أن صديقي صلاح ابن إصابة! في معركة صيب في ذراعه الأيسر، وتم بتر الذراع. لن أستطيع أن أزوره في جازتي القادمة، الموقف صعب علي، ومؤكد صعب عليه أكثر بكثير. ري ما موقف من كان يحبها وتحبه؟ هل مازال صلاح متمسكًا بها،

ويأمل في الزواج منها وقد أصبح بذراع واحدة؟ مؤكد أبوها سيزيد عنادًا له. لم أفتح معه هذا الموضوع حين قابلته، ولا حتى بعد انتهاء الحرب، لمحت أصابعه لا تحمل دبلة خطوبة، وبالطبع ولا ما بعدها من دبلة زواج، لم يتزوج. وبقدر حزني على حال صلاح، بقدر ما كان حزن نصار عليه.

معركة نهارية هائلة. المدفعيات تتبارز من بعيد لبعيد. نحن في تأهب متوتر نراقب مياه البحيرة، مدافع العدو قصدتنا بكم هائل من القذائف. الانفجارات التي تحدث خارج وداخل هياكل السفن المقلوبة، فنقول إن أصوات الشظايا ليست أصواتًا، بل هي صرخات وتشنجات شيطانية، وأزيز متواصل بصدى مستمر.

انتهت المعركة ولم نفقد أحدًا منا. ثم هدوء يسود لفترة طويلة. الأوامر في جيشنا بعدم الاشتباك، ونفس الشيء عند أعدائنا، وعلينا ألا نتهاون في الانتباه المستمر.

الونسات والحوارات مع بعضنا، المرأة تأخذ منها حيزًا عريضًا عميقًا، فنحن ما بين عمر العشرين والثلاثين، والطاقة الجنسية فينا بركانية، نشتاق لأحضان حبيباتنا أو ما نتمنى أن يكن حبيباتنا، والبعض الأكثر عمقًا، يشتاقون للعشيقات أو للمحترفات. وتفكيرنا في المرأة أيضًا يشتاق لأمهاتنا وأخواتنا البنات، نشتاق إليهن، نشتاق لشرب الشاي معهن وتناول الطعام معهن والضحك والغضب معهن. حرماننا من أحضان أمهاتنا مؤلم. قيمة المرأة، خاصة قيمة الأم، تتعملق حين نفتقدها. الحياة بدونهن سخيفة مملة.

في فترة الهدوء النسبي، ولا معارك تنشب، كنا نصطاد السمك بطرق بدائية! نصطاد أكثر من نوع، فشبعنا شهورًا طويلة من السمك الطازج. وكنا بكرم أصدقاء السلاح، نرسل كميات مما نصطاده لأصدقائنا البعيدين عن ساحل القناة، فنأكل كلنا السمك بشهية شباب يحارب الضجر بالطعام وبالسخريات من أنفسهم، وأيضًا حكي الحكايات، خاصة النسائية منها. ثم انتظار الإجازات لنرى الطريق المسفلت ونعيش مع المدنيين مثلنا مثلهم ولو لعدد من الساعات المحددة.

ذهبت لقائدي الشاب. طلبت منه إذن غياب لمدة ثماني ساعات. سألني لِم؟ قلت معي سمك بالزيادة، وأريد الذهاب لصديق لي في كتيبة قريبة من كتيبتنا، لنتغذى سمكًا معه ومع زملائه. احتار الضابط ثواني ثم ضحك وقال..

-تعرف يا عريف ياللي أمورك غريبة إنت. أنا حنديلك الإذن، وحكتب فيه لتوصيل سمك لصديقه. وطبعًا قائد كتيبتنا سيضحك عليك وعليّ.

حملت شيكارة مترعة بالسمك الطازج. سرت مسرعًا في مدقات ترابية. أسرع وأسرع فالوقت ضيق. فجأة سيارة جيب تأتي من ورائي. شاورت لها، قلت لو بها قائد، لن تقف. وقفت ولمحت جنديًا جالس بجوار السائق. وثبت في الجيب من خلفها. ركنت الشيكارة رائحة السمك عبقت السيارة. نظرت ناحية السائق لشكره، فإذا الجالس بجواره على كتفيه علامات لواء! يا دهية دُقّي. لم أنطق. في حرج بالغ من رائحة السمك التي خلتها قد احتلت عمق السيارة.

صامت وأنتظر سين وجيم من سيادة اللواء. لكن اللواء سألني متأففًا..

-شايل إيه؟

قلت محرجًا..

-سمكًا.

فترة صمت والسيارة في سيرها. سألني اللواء..

-على فين؟

-شوية قدام.

فقال بحزم..

-قدام فين؟ حدد كلامك.

قلت له مكان الكتيبة التي أقصدها. قال اللواء للسائق..

-الأول نوصل العسكري الزفر ده، وبعدين نروح مشوارنا.

صلاح استقبلني بفرحة، تزيد عن فرحته برؤية كمية السمك التي أتيت له ولزملائه بها. قضيت ساعات رائعة معه. انفرد بي وحكى أن أبا حبيبته مازال على إصراره برفضه. تمنى أن تتوافق إجازاتنا معًا، لنصيع في محطة الرمل بالإسكندرية. عدنا وسط زملائه. حكيت لهم عن السيارة الجيب واللواء. ضحكوا. صلاح قال لي ساخرًا..

-كنت بتحكيلي عن الأفلام اللي كنت بتشوفها زمان. تكونش دي كمان حكاية لفيلم ألفته؟

أكدت له صدق ما أحكيه، وأن اللواء كان يكتم ضحكه. لم يصدقني صلاح، فأقسمت له بحياة أبي حبيبته أنني أقول الصدق، فسبني أنا وأبا حبيبته.

في نهاية لسان التمساح حيث مدفعنا الرشاش، صنعنا مقعدًا من الأحجار وبطناه بحشية من بقايا شكائر خيش. مسند الظهر من الحديد. المقعد أمامه ساتر يخفي الجالس فلا يظهر منه للأعداء سوى رأسه. ليلاً المقعد نقطة مراقبة، وفي النهار اتخذناه صالون حلاقة رائعًا، أصالون حلاقة يطل على بحيرة؟! زميلنا وصديقنا فاروق، صنعته الأصلية حلاق. يحلق للجنود مقابل مبلغ رمزي بسيط. قص فاروق شعري مرات على هذا المقعد التحفة. ولم أجد في حياتي بعدها ولا قبلها، صالون حلاقة يطل على منظر أجمل من بحيرتنا.

وتمر الشهور ما بين انتباه عالٍ مستمر، واسترخاء لعدم الاشتباك. وسواء كنا في هدوء نسبي، أو كنا في قتال شرس، فنفوسنا قرارها أسى. نحن في حالة هزيمة، وعدونا في حالة نشوة وكبرياء واستخفاف بنا. قلوبنا تشتعل بغضب وطن أهين، وتحوي عواصف ومشاعر انتقام سيأتي أوانه.

وهنا بدأ نصّار في التعب، كبده زادت متاعبه. لم يتكلم ولم نأوه. لكن وجهه ازداد اصفرارًا. وحين نوقظه ليقوم بخدمته الليلة

كمراقب، ينهض بصعوبة، لا تكاسلاً منه، بل لأن جسده الضعيف لم يعد يحتمل، ولا أحد منا يستطيع أن يقوم بالمراقبة الليلة بدلاً منه، فجسدنا ووعينا لن يتحمل ساعات إضافية.

أنا وهو إجازاتنا لا تتوافق فنحن من طاقم واحد. لكن بعد مرور عام، انتقل نصّار ليكون حكمدارًا لطاقم آخر. حزنا فكل منا صديق حميم للآخر، يخفف عنه حبسة التجنيد وصعوبة أيامها. لكن ذهابه لطاقم آخر، أعطانا فرصة أن نجعل إجازاتنا متوافقة. ومن هنا بدأت مرحلة جديدة من الصداقة بيني وبينه. ولما أتت كتيبتنا العسكرية لحدود القاهرة، وصرنا نتلقى إجازات قصيرة ومتوسطة، ولا أستطيع فيها لا الذهاب لعائلتي في قرى شتات النوبيين البعيدة، أو حتى الذهاب للإسكندرية، فكان مقصدي بيت خالتي للنوم فقط، وبقية الوقت أقضيه في بولاق الفرنساوي.

في ستينيات القرن الماضي، وأوائل السبعينيات، شوارع بولاق الفرنساوي، بعضها متسع وبعضها متوسط والبعض عبارة عن حارات. البيوت قصيرة ومتوسطة الارتفاع. دكاكين متواضعة ولافتاتها مكتوبة بخط الخطاطين بألوان بهتت ولا يتم تجديدها. عربات اليد وعليها البضائع من خضراوات وفاكهة، وأدوات منزلية رخيصة. نداءات الباعة منغمة حلوة. المطاعم بسيطة رخيصة، المقاهي بسيطة أغلبها ضيق والزبائن يجلسون على مقاعد مرصوصة على الأرصفة. الأطفال أغلبهم حفاة يجرون هنا وهناك وهم يصرخون في لعبهم. على أبواب بعض البيوت، نساء يجلسن على العتبات بملابس البيت البسيطة. يتحاورن في مشاكل الحياة، وهن يعددن الغذاء،

أو أي كلام لمجرد تضييع الوقت. من شبابيك الطوابق الأرضية، تطل الفتيات، ومنهن من تقفن على الشرفات يتابعن المارة وينشرن الغسيل. أغاني عبد الحليم هي الأكثر انتشارًا، خاصة أغانيه الحزينة، لكن في الصباح، فمحمد قنديل يكتسح بأغنيته يا حلو صبح يا حلو طل. يا حلو صبح نهارنا فل، وصوت العظيمة أم كلثوم وهي تغني (يا صباح الخير يا اللي معانا. الكروان غنى وصحانا) وهي مقدمة لبرنامج شهير وقتها.

روائح متعددة تهف على الماشي في الشوارع، أبخره مطاعم لحمة الرأس الدسمة، وتنويعاتها من الكوارع وفتّة العكاوي إلخ. مطاعم الكشري والفول والفلافل، تبث روائح لافحة طيبة تليق بالحي الحرافيشي. أما أجمل وألطف الروائح، فهي سحب البخور الصوفي المنبعث من دكان التوابل؛ حيث يثبت صاحبه دائمًا عمودين من البخور على جانبي باب دكانه. حين أعلنت إعجابي بحيوية الحي، والتفاؤل الذي مازال حيًّا في وجوه الناس، أفهمني عليوة ببساطة، أن الحي قبل الهزيمة، كان حقًا حيويًّا متفائلاً، الآن نعيش بفتافيت ما كان.

تعرفت على عائلة نصار. دخلت بيته كثيرًا وصرت من أقرب الناس لهم. جالست أباه مرتين. عجوز طيب كان مقاولاً كبيرًا، ثم خسر خسارة ضخمة أسقطته أرضا. بالكاد بقي له هذا البيت الذي يعيش فيه. له ابنة كبرى تزوجت في نفس البيت، وثلاث أولاد أكبرهم مسار. أما أقرب أفراد العائلة لقلبي، فهما عجوز وطفلة. العجوز هي أم نصار. مثل الأمهات البسيطات. الحنان والابتسامة المشرقة التي

تريـح من يجالسها. صارت تناديني يا ابني. أجلس معها على نفس الكنبة التي تجلس عليها، أبادلها الحكايات والمزاح، فتضحك وتكركر فتسعد كل العائلة بضحكتها، قالوا.. أم نصّار تنتظر صديق ابنها ليأتي ويضحكها بالقوي.

أما الطفلّة فهي ناهد ابنة أخت نصّار. وناهد طفلّة في الرابعة من عمرها، حيوية ساخرة تُشاغب وتُضحك طوب الأرض. أحببنا بعضنا فصارت تثب على الكنبة التي تحوينا أنا وجدتها لتشاكسنا معًا، تتعلق برقبة جدتها وتثب على كتفي لتشدني من شعري القصير. يومًا واجهتني تمامًا. وجهها أمام وجهي لا يفصل بينها سوى عرض ثلاثة أصابع. نظرت في جبهتي بتمعن، فانتظر الجميع ما ستقول الطفلّة سليطة اللسان. أصلاً وأنا رضيع كان أبي وأمي في قطار إسكندرية الداخلي. أمي تحملني وتجلس بجوار النافذة. فإذا بصبي يقف على قرب من شريط القطار المسرع، يقذف القطار بحجر صلد من أحجار رصف الطرق. الحجر اصطدم بحافة النافذة ثم انحرف ليضربني في جبهتي. قالوا إنه أغمى علي وظنوا بداية الأمر أنني مت، ثم تنفستُ وصرخت. دماء ومستشفى وغيره. انتهى الأمر بنحت في جبهتي يشبه علامة عنخ الفرعونية. المهم.. قالت ناهد في تساؤل طفولي المظهر خبيث المخبر..

-إيه العلامة اللي في قورتك دي. عشان لما تتوه يلاقوك؟!

ضحكت وأنا أشدها من أذنيها برفق. جدتها وأمها وخالها نصّار ضحكوا أولاً، ثم كتمت جدتها وأمها ضحكهما وصمتتا محرجتين مم قالته ناهد. لكن نصّار وأنا استمررنا في الضحك. اطمأنت أم نصّار

وأخته فعادتا هما أيضًا للضحك. ناهد صارت من أحب الناس لي. وكونا ثنائيًا مشاكسًا ساخرًا يزيد جدتها ضحكًا على ضحك. في إجازة من إجازاتي، وبمجرد أن دخلت، وقبل أن أسلم على أهل البيت. إذا بمن تمسك بساقي من الخلف وتنهشني. التفت وناهد مستمرة في نهشي بإصرار. أبعدتها وأنا أسبها ضاحكًا..

-آآآه يا بت الكلب.

تركتني وأسرعت بعيدًا سعيدة بما فعلتْ. وجدتها وأمها ونصّار وشقيق نصّار الأصغر في ضحك مما حدث، أنا لم أضحك، فقد شتمت أبا ناهد. وهو رجل وقور بيني وبينه سلام وكلام رسمي. كنت في حرج لكن أم نصّار ومن معها أزالوا الحرج مؤقتًا. أمسكت بناهد وأشبعتها عض مزاح في كل جسدها. تركتهم عائدًا لأبات في بيت خالي. وبعد أن عدنا صباحًا أنا ونصّار لكتيبتنا. لم ينتظر نصّار أن أسأله عما حدث بعد ذهابي. قال لي..

-أبو ناهد سمع بشتيمتك لناهد.. يا بت الكلب.

-ياااه. قال إيه؟

ضحك وقال لناهد.. إنتِ اللي جبتيلي الشتيمة يا بت الكلب.

الجندي حسين ألح على أنا ونصّار، أن يسهر معنا في بولاق الدرلساوي. أشهر وكانت أجازته تتوافق مع أجازتنا. في الليلة الأولى ان معنا في قهوة سلامة، وفي ساعة واحدة أصبح صديقًا لشباب الشارع وألحا صغيرًا لعليوة الزوربا. زوربا المفلس في الغالب، طلب

لحسين الشاي مطمئنًا، فأنا ونصّار متواجدان وسيدفع أحدنا الحساب، ولم يكتفِ بذلك، أرسل صبي القهوة ليأتي لنا بسندويتشات الفول والطعمية، ولما اعترضنا ضاحكين أنا ونصّار، شخط ونطر فينا مهددًا، إن لم نصمت فسيحول الطلب من الفول والفلافل والمخلل، إلى كبده من دكانة ابن الوسخة. فصمتنا.

نأكل معًا سندوتشات الكبدة. لفت نظرنا السيدات وبعض الرجال يهرولون ناحية الجمعية الاستهلاكية الحكومية، إذن خبر وصل للناس بأن كمية من الدجاج المجمدة وصلت، أو كميات من السكر أو غيره. يندفع الناس ليلحقوا بما يأملون ويتمنون، فالمتواجد كالعادة سيكون قليلاً ولن يكفي الكل. الزحام حول الجمعية الاستهلاكية سيغلق الشارع.

نشرب الشاي فإذا بصبي يهرول ناحيتنا ويبلغ الزوربا بأن أخته تتشاجر مع موظفي الجمعية. أسرع الزوربا ونحن وراؤه. أصوات النساء وتتزعمهن أخت الزوربا، يتهمون العاملين في الجمعية بأنهم لصوص، ويبيعون البضائع في السوق السوداء، ثم يدعون أنها نفدت! وبعدها عليهن شراء نفس تلك البضائع بأسعار أعلى من عصابات تتبع العاملين في الجمعية. أغلب الذين يسرعون للجمعيات الاستهلاكية، ليلحقوا بدجاجة واحدة أو بكيلو سكر، بأسعار معقولة، هم من أفقر طبقات الشعب، والشراء من السوق السوداء يرهقهم ماديًا، وهم أصلاً في إرهاق مادي صعب.

اقتحم عليوة الزوربا المكان ودخل في وسط الجمعية. أخته في جانب تردح لأحد العاملين في الجمعية، والعامل يتهمها بالجهل

وقلة الأدب. لم يتحاور معه الزوربا. أمسك به من أذنيه وضربه بجبهته على أنفه. العامل يسقط يتلوى ويصرخ أرضًا، يمسك بأنفه النازف. هرج ومرج ومدير الجمعية يهدد كذبًا باستدعاء البوليس ليسجن الزوربا. بقية العاملين قاموا بالتهدئة. اتفقوا باعتذار من الزوربا للمضروب، ووعد من المدير بأن يطالبوا المسئولين الكبار بإرسال كميات من اللحوم والسكر أكثر. إن الموضوع ذهب للشرطة، فسيتم حبس الزوربا، لمن في التحقيق ستكون فضيحة على العاملين المرتشين بما فيهم المدير. وافق الزوربا، فإن جاءت الشرطة فسيتم سجنه بالقطع.

حسين أتى معنا ليلة أخرى وكان حظه منيرًا، كانت سهرتنا في حجرة الزوربا، فأعجب بالسهرة التي سمع عنها مني أنا ونصّار. سكر ولعب من رداءة الخمر، لكن صمد وشجعه عليوة الزوربا وقال عنه:

-مادام شريت خمرتنا تبقى واحد مننا يا حسين.

وفي إجازات تالية، صار يأتي حتى لو أنا ونصّار غير متواجدين. كان فيه تواجد عليوة الزوربا الذي اعتبر حسين أخًا صغيرًا له، تمامًا مثلي أنا ونصّار.

مال نصّار لفتاة من الحي، لكن لم يحاول أن يزيد من اقترابه منها. مثلي ومثل ألوف غيرنا، نخشى الموت وتَرْكُ أرملة وأطفال. سمعت عنه ما حدث بينه وبينها. تأكدت أنها تريده رغم مستقبله الغامض، لكنه هو الذي خشي عليها وعلى من ستنجبه وأصر على الابتعاد. أنا صادقت مع مديحة. مديحة فتاة تجمع بين أصل سوداني وأم من

دلتا مصر، وهي نشأت في بولاق ماسبيرو. في عدد من الإجازات سرت معها خاصة في منطقة جاردن سيتي. تهنا في شوارعها الدائرية ومرحنا معًا. جلسنا على شاطئ النيل مرارًا. مرتين منها كان الغروب يغيم. فكان الحزن يغيم علي. قلت لها..

-لا أحب الغروب.

ثم ابتعدت عنها كما ابتعد نصّار. قالت إنها تريدني ولا يهمها ما سيحدث لي في الحرب، لكنني أصررت على الابتعاد، فربما أموت، وربما أصاب مثل صلاح، وهذا أسوأ. دانيال فعل مثلنا رفض الزواج، رفض الارتباط بفتاة طالما هو في حالة الحرب جنديًا. أما عبد الشافي فقد تزوج، وأما صديق العمر ابن خالتي الذي جُند لسنوات خمس، فقد تزوج، والحمد لله خرجوا كلهم سالمين من الحربين.

رغب نصّار في مقابلة عائلتي! حذرته أن المسافة بعيدة، وأن قريتي بما فيها من عائلتي في حالة ليست بالطيبة، أصر. سافر معي بقطار الدرجة الثالثة. قضينا ليلة كاملة فيه. شاهد هو لأول مرة ناس الصعيد، في القطار وفي البلدة التي نزلنا في محطتها. كم هم في بؤس. ركبنا عربة حنطور مرت بنا على عدد من قرى الصعيد ثم وصلنا لقريتنا المُهجرة. رصد البيوت الإسمنتية الضيقة القبيحة. في نفسه قارن بينها وبين ما سمعه مني عن بيوتنا الجميلة قبل التهجير. وحين سأل نصّار أين الزراعات؟ أشرت له على مدد الشوف. صحراء قاحلة هي التي وعدونا بها مزروعة.

في بيتنا الضيق ووالدي وأختي وأخي الصغيران حيوا نصّار الذي

كلمتهم عنه في خطاب سبقني. أحس بطيبة والدي والحزن الذي لم يستطيع مداراته. تغذينا وارتحنا في الظهيرة القائظة. وفي المغرب والليل زرنا أقاربي وجالسنا عددًا من الشباب بينهم عدد من الفتيات.

في الصباح قبلنا دعوة إفطار أعدها لنا شاب في بيته. أفطرنا فولاً بالزبدة. ثم ذهبنا للمقهى. المقهى حجرة من بيت. والجلوس على مصطبة والأغلب على الرمال. حولنا عدد من الشباب الصغير. رحبوا بنصّار. بين لهم أنه حزين لحزنهم. قال الشباب..

-فطرت معنا فول بالزبدة. رأيك إيه؟

-جميل.

-عارف منين الزبدة دي؟

-لا.

-من أمريكا. من المعونة الأمريكية هي واللبن المجفف وغيرها.

ضحك نصّار وقال..

-يبقى الفول من مصر.

ضحكنا وصحح له شاب آخر..

-لا. مصر بعتت لنا وزيرة خطبت فينا وقالت إنتم المهاجرين حن الأنصار. ثم عادت لمكتبها المكيف في القاهرة.

سمع سؤالاً يحيرنا..

-ليه يا نصّار يا أخويا، لغاية دلوقتي مفيش مذيع ولا مذيعة في تليفزيون مصر من لونا؟! هو إحنا منظهروش في التليفزيون إلا للمألسة علينا.

اليوم الثالث غادرنا قرية الشتات على الأقدام. ثم وجدنا سيارة نقل أقلتنا لقرب المحطة. في القطار قال نصّار..

-مكنتش عارف إن الصعيد بالغلب ده. ولا النوبيين كمان بالمرارة دي.

-الصعيد في غلب، وبكرة يطوروا قراهم. النوبة قراها غرقت بفعل فاعل.

أربع سنوات مرت علينا وإذ بقرار يفرحني.. كل المؤهلات الذين جندوا، وبقوا في الخدمة العسكرية، يمنحون نصف مرتباتهم التي كانوا يتقاضونها من أعمالهم قبل التجنيد. حلو قوي. كان نصيبي مرتبًا يوازي الذي آخذه كل شهر من كتيبتي الحربية، لكن تساءلت.. ولماذا 50% فقط؟! لماذا لا يكون 100%؟! زميلي الذي لم يجند مثلي، ويعيش مع أمه أو مع زوجته، ينام مطمئنًا ويعيش في مدينته أو قريبته منعمًا مكرمًا، وأنا هنا في عذاب لأدافع عن وطني، لماذا هو ينال 100% وأنا 50% فقط؟! نصّار لم يكن يعمل في وظيفة ثابتة، لذا لم يكن من الذين يمنحون 50% من مرتبهم. لذا ظروفه أصعب مني بكثير.

(((((())))))

5-الضابط نسيم مختار الزيني

نسيم مختار الزيني. ضابط شاب على كتفه نجمة واحدة. نشيط جسديًا وعقله في عنفوان لا يستريح. كنا أنا ونصّار نتغلب في معرفة سلاحنا على أي ضابط يأتينا. فمدفعنا الرشاش نكاد نكون قد شرينا تفاصيله، حتى أتانا الملازم نسيم مختار الزيني. فكان لا يقل عنا معرفة بالسلاح، ويزيد عنا في استخدامه التكتيكي. أحببناه وأحبنا، فقد كنا ملتزمين بالتدريب وبالطوابير التزامًا ملحوظًا، بالإضافة إلى بعض معلومات لشاب يحب القراءة، ففي فترة عملي بالسد العالي، قرأت مقالات عديدة، وكتبا عن حروبنا ضد إسرائيل منذ نكبة 1948. وقرأت عن الإسكندر الأكبر وجنكزخان ونابليون وخالد بن الوليد، والحرب الهتلرية الخاطفة **Blitzkrieg**. ولم أترك حرب العصابات، فوقتها كان الحديث عنها موضة. حرب فيتنام وموقعة ديان بيان فو، والرائع جنرال جياب. ومقالات تخص كاسترو وجيفارا، ولم أترك كتاب (فن الحرب) للصيني سون– تزو.

طَلَبَنا أن نساعده في صنع نماذج لطائرات العدو الإسرائيلية، الفانتوم والسكاي هوك. نماذج خشبية لزوم التدريب، نحن لا نفهم شيئًا في النجارة، أما هو فكأنه نجار محترف! وخلال تدريب بعيد عن معسكرنا، لم تمنعنا نوّة شتائية شديدة، كنا عائدين في الصحراء مكشوفة على ظهر العربات المكشوفة. محشورين فوقها متعبين

والبرد لا يرحمنا. متداخلين في بعضنا لنقلل من قسوة البرد علينا. كابينة العربة بها السائق والضابط نسيم. تعطلت عربتنا من دون بقية العربات. حاول السائق أن يصلح العيب لم يستطع. نحن متلهفون على الوصول للمعسكر، لنهرب من زمهرير البرد، ولنأكل وجبه ساخنة، ثم ننام منهكين. الضابط نسيم يقف بجانبه، حاملاً بطارية تنير للسائق فم العربية حيث المحرك وغيره. السائق لم يستطع شيئًا والمفترض أنه مدرب على الإصلاح. نزل من فوق العربة جندي يدّعي المعرفة، فشل. وهنا طلب الضابط نسيم منهما أن ينيرا له جوف السيارة بالبطارية. انهمك في التصليح ونجح. صفقنا له فرحين، فقد أنقذنا من البقاء في هذا الجو لساعات.

يومًا.. طلبني الضابط نسيم لأشرح كلمات أغنية نوبية، تذاع في إذاعة صوت السودان من القاهرة. شرحت له ما استطعت، ثم فاجأته بتساؤل شبه ساخر..

-هو حضرتك ظابط ولا نجار ولا ميكانيكي ولا دارس لغات؟!

-كله.

من عمق علاقتنا أنا ونصّار بالضابط نسيم، اتفقنا أن نتقابل في إجازة سريعة. اخترنا مقهى في قلب القاهرة. جلسنا ثلاثتنا بالملابس المدنية. نمزح سويًا ونضحك ونحكي عن أنفسنا. عدنا لكتيبتنا صباح اليوم التالي. في الطابور كنا أنا ونصّار جنديين ملتزمين لا نعرف عن الضابط نسيم غير أنه قائدنا، أما الصداقة التي بيننا، والسهرة ليلة أمس، فليس لهما دخل بالضبط والربط العسكري. ثم انتقل الضابط نسيم لكتيبة أخرى بعد أن صار بثلاثة نجوم.

عادت كتيبتنا لضفة القناة حوالي سنة، ثم عادت للتدريب في صحراء هايك ستيب القريبة من القاهرة. اخترت أنا ونصّار لنعمل شهرًا كمعلمين للمستجدين في الفرقة كلها. المعسكر شاسع وقريب من القاهرة. وبصفتنا معلمين، كنا بعد التدريب الذي يستمر للعصر، نذهب للقاهرة لقضاء الليلة ثم العودة في الصباح الباكر. يومًا أنا ونصّار وقد قاربنا الخروج من المعسكر، توقفت فتوقف نصّار. صوت مُعَلِم القتال المتلاحم يصلنا وهو يصرخ بتعليماته للجنود. التفت لنصّار..

-هذا الصوت أعرفه.

-نعم.. إنه هو.

اقتربنا من تدريبات الصاعقة. حوالي ثلاثين جنديًا ونصفهم العلوي لا عليه سوى فانلة خفيفة، وهم يؤدون حركات القتال الصعبة في قوة وعنفوان شباب. أمامهم ضابطهم بنفس ملبسهم وهو يصيح شارحًا وفي نفس الوقت يقوم بأداء الحركة المطلوبة. إنه الضابط نسيم مختار الزيني! اقتربنا ووقفنا نتابع. لاحظنا واستمر في التدريب ثم بعد حركات متواليات صعبة تم إنهاؤها. نادى في الجنود المقاتلين..

-استرح.

وقف المقاتلون وقفة راحة. أتانا الضابط نسيم ضاحكًا سعيدًا بنا. السلام باليد لأن جسده مبلل تمامًا بالعرق. سأل عن أحوالنا. التفتين ثلاثة شكرنا على أدائنا المنضبط حين كان قائدنا، وشكرنا له

امتيازه وإنسانيته مع الجنود، ومعنا أنا ونصّار على وجه الخصوص. لكن وهو يستدير ليعود فاجأته باستفسار مضحك..

-نجار وميكانيكي وضابط رشاشات ودارس لغات، ثم ضابط قتال متلاحم في سرية صاعقة! هو حضرتك إيه بالظبط؟

التفت وهو يسير للخلف وأجاب وهو يبتسم..

-كله.

(((((())))))

6-عودة مع نصّار لسنوات المجد والشقاء

خلال حرب الاستنزاف أتاني قرار مؤلم.. كل من كانوا يعملون في السد العالي، وتم تجنيدهم، يعتبرون عمالة زائدة ويتم نقلهم من شركاتهم للعمل في الوزارات الحكومية! أتساءل..

-معقول؟!

نعم معقول.. فزعيمنا المؤمن ناسب صاحب الشركة التي كانت تبني السد، وكنت أنا من موظفي الشركة، وانتهى العمل في السد. وبدلاً من موظفي وعمال الشركة حاليًا مجندون ينالون 50% من مرتباتهم من الشركة، فلم لا يتم طردهم من الشركة وحشرهم في الوزارات، وبهذا يتخلص صاحب الشركة من تكلفة مرتباتنا، وتتحملها الحكومة؟! وصرت عمالة زائدة وأنا مشارك في حرب الاستنزاف!

سنتحول من مشاة إلى مشاة ميكانيكي. أتتنا عربات برمائية مجنزرة. كنا في رمضان، وكان الواجب أن يتم حفر حفرة لكل مجنزرة حتى تكون في مأمن من أي هجوم غادر من طائرات العدو. فكان شهر رمضان هذا أصعب شهر صيام مر علينا طوال حياتنا. أولاً ألغيت الإجازات وثانيًا ونحن في صيام كان علينا الحفر. كل حفرة يجب أن تكون متسعة بالغة العمق بحيث تحتوي المجنزرة براحتها. نبدأ من الصباح حتى قبل المغرب بنصف ساعة. نسرع للخيام

فنتناول إفطارنا ثم سريعًا نعود للحفر حتى منتصف الليل تقريبًا. نعود لعشاء نتناوله ونحن في تعب وضيق.. فغدًا صباحًا سنعاود الحفر. حتى أتى عيد الفطر وكل العربات البرمائية ذات الجنزير في حفرها، فكنا مطمئنين ونحن نبتسم للعيد ولكميات من الحلوى أتتنا، وعودة برنامج الإجازات. وبعد راحة معقولة بدأ تدريبنا على عرباتنا، التدريب بقدر متاعبه كانت لذته، فتشكيلاتنا بهذه العربات السريعة، تشكيلات فنية رائعة، وهذه العربات البرمائية ذات الجنزير، هي ما سنعبر بها قناة السويس حين تحين ساعة العبور.

كلنا.. كلنا كعساكر في الكتيبة إعجابنا تركز عند ضباط معينين. الضابط نسيم مثلاً والضابط الذي نسيت اسمه، وكان رشيقًا وحين يرتدي نظارته يصير شبيه النجم الهوليودي ستيف ماكوين، وهو أي الضابط يعلم ذلك. والضابط سلمي الطويل عريض الكتفين، والذي رغم سمرته الخفيفة، أسلوب كلامه تمامًا مثل أسلوب النجم مارلون براندو، وهو يعلم ذلك. أما الضابط عبد الكريم قشقوش، فهو قوي الجسد بالغ الطيبة، وكان وقت الراحة يلعب معنا كرة القدم والكرة الطائرة، وله ابن عم أقوى منه جسدًا ونال بطولة الجمهورية في كمال الأجسام.

الضابط محمد السيد الوسيم، شاهدني من بُعد وأنا أسير سارحًا في ضيق، فإذا به بدون أن يقول لي، يضيف لي يومًا زائدًا في أيام إجازتي الرائد الذي أصيب في أول العبور، وترك المستشفى وأسرع لينضم لنا في القتال وهو يعرج ولم يندمل جرحه! قائد كتيبتنا عادل فهمي الذي أحببناه، وكان أول المصابين وأول الشهداء. وغيرهم الكثير من

الضباط الذين تدربنا معهم وحاربنا معهم. أما الرائد الضخم مخيف الهيئة الذي انضم لنا ونحن في صحراء هايك ستيب. فهو بالغ الحزم قوي الصوت، فنال لقبًا من الجنود.. الأشكيف المخيف. وهذا الاسم كان اسم شخصية مخيفة من شخصيات المسلسل الرمضاني ألف ليلة وليلة. الفرق أن رائدنا كثيرًا ما كان صوته الغليظ القوي، يحمل سخريات تضطرنا لكتم ضحكنا. أحببناه. وصلته تسميته بالأشكيف المخيف.. فابتسم، من كانوا حوله قالوا هذا. أصلاً في معارك الاستنزاف والعبور، كان ضباطنا معنا في المقدمة، ولذلك فخسائرنا من الضباط في الحربين، من أعلى النسب التي رصدت في الحروب العالمية.

قاربنا الخمس سنوات ونحن في الجيش. لا يستهين بطول هذه المدة قتالاً وتدريبات إلا كل جاهل أو عديم الحس. نلت خمسة أيام إجازة. نفسيًا في حالة ملل ثقيل. ملل يتثاقل علي فلم أحاول الاتصال بأي صديق. حالة ضيق.. خنقة صدر تعصر القلب. في اليوم الثالث سير في أجمل وأشهر شوارع الإسكندرية، شارع صفية زغلول. البحر على بعد أمامي. أمر أمام سينما ريالتو التي أحبها وتحمل لي ذكريات طفولة غريرة، حسرة داخلي قالت.. لن أستطيع الآن العودة للكتيبة. سرخ ألمًا من ضياع يعتريني. غبت عن الكتيبة ثلاثة أيام. ثلاثة أيام عشتها في بؤس أليم، ثلاثة أيام كانت من أصعب الأيام في حياتي. م عدت للكتيبة. الحزن مجسم في ملامحي، لكن الرهبة والتوتر الخوف علي في وجوه زملائي الجنود. قائد الكتيبة في إجازة، والذي يحاسبني على الغياب هو الأشكيف المخيف، إذن سأنال حكمًا اسيًا مؤلمًا. لم أخف، بل لم أهتم، فما بي أقسى مما سيكون. وقادني

الرقيب إلى حيث خيمة الأشكيف. يجلس على منضدة واسعة وأمامه ملف، عرفت أنه ملفي الشخصي. أقف أمامه وقفة عسكرية صارمة، وملامحي هادئة لا تعطي أي تعبير. سألني..

-تلات تيام غياب! ليه يا عريف؟

-مفيش سبب.

يندهش. يسألني..

-عيلتك كويسة؟

-كويسة.

-طب ليه الغياب؟!

-مقدرتش أرجع.

-ليه؟

-كنت مأزوم.

قال الأشكيف المخيف وهو يكتب أمامه..

-ثلاثة أيام حبس بالقشلاق.

أي ثلاثة أيام لا آخذ إجازات فيها! أي براءة. عدت مع الرقيب المندهش من البراءة وأنا لست مهتمًا. زملائي ينتظرون خبرًا سيئًا عني. قال لهم الرقيب ما حدث، فإذا بهم يصرخون تعجبًا وفرحًا

وبعضهم ألقى بقبعاتهم عاليًا وأخذوني بالأحضان. شرح الرقيب أن الأشكيف كان أمامه ملفي. وأنا وهو نعرف ملفي جيدًا، فطوال خدمتي لم أرتكب خطأ. وأنا من أمثل السرية والكتيبة في مسابقات المعلومات العامة. وأنا من يدرب الجدد على السلاح، وأنا لاعب الكرة الممتاز في الاستراحات ويشاهدنا قادتنا ويشجعون، وأنا من ضمن الذين تطوعوا لعبور مجرى القناة، حين نعود لهناك، فنهاجم دوريات العدو ونقتل فيهم ونأسر.

نلنا تدريبًا قاسيًا في القتال المتلاحم، ثم كنت من ضمن العشرة المختارين. ثم أنا بلوني النادر في الكتيبة معروف تمامًا. ولذلك رأى الأشكيف المخيف أنني صادق القول ولا أستحق أي جزاء.

أنا ونصّار إجازة في شهر رمضان، فأتى معي للإسكندرية. بيتي قديم ومهالك، أعيش فيه وحدي، فقد سافرت عائلتي إلى قريتنا النوبية المهجرة في الصعيد. وبالصدفة كان صديقاي برهومي وحودة في مثل حالة أيضا، هما صديقان حميمان سكندريان، وكنا نعمل سويًا في أسد العالي بأسوان. وقد تم تجنيدهما في نفس شهر تجنيدي، وكل منا ذهب لكتيبة قتالية ما.

كنا في فرحة لقاء، وفي نفس الوقت كنا في تعب من طول سنين تجنيدنا. حكى كل منا عن القتال الذي شارك فيه كل منا، وعن التعب من طول مدة التجنيد، وعدم ظهور أي بادرة للعبور وانتهاء الحرب، وسواء كنا على قيد الحياة أو موتى، كله مثل بعضه، فقط ننهي فترة التجنيد الصعبة، لكن دعونا الله ألا نصاب.

لم آتِ بذكر صلاح، أخاف ألا أستطيع التحكم في بكائي حين أراه. لكن نصار ذكره وأصر على زيارته. زرناه نحن الأربعة. فرح فرحًا طاغيًا بنا. ونحن وجدناه وقد زاد وزنه. صلاح مشرق الوجه رغم ذراعه المفقودة. حيا صديقيّ برهومي وحودة مرحبًا، لكن حين قدمت له نصار، فإذا به يحتضنه بيمناه في قوة، فقد سمع مني كثيرًا عن نصار، كما سمع نصار كثيرًا عنه. شربنا الشاي وتحدثنا عن أمور كثيرة ليس منها الحرب ولا الحب. اعتذر عن الخروج معنا. عليه الذهاب مع أمه في زيارة لطبيب. انصرفنا لكن عند باب البيت عدت لأحضر علبة سجائري التي نسيتها. فإذا بي أشاهد صلاح يخفي وجهه بين كفه وأصابعه اليمنى ويبكي.

نهار رمضان وأربعتنا مفطرون. نسير في شارع الملك فؤاد نمر أمام سينما أمير، ثم نتجه يسارًا لندخل شارع صفية زغلول. كل منا يدخن سيجارته. أربعتنا تقريبًا في الخامسة والعشرين من العمر. طاقتنا الشبابية محصورة في التدريبات العسكرية والحرب، وكل منا تعرض للموت والإصابة أكثر من مرة، وكل منا أستشهد زميل له أو أكثر وأصيب زميل له أو أكثر.

وكل منا لا يدري متى يموت أو يصاب. طاقتنا الشبابية المكبوتة وحرماننا من الحياة المدنية، وحرماننا من التلاقي مع البنات، ننفسها في دخان السجائر، وفي الضحك العصبي بصوت عالٍ. وما يحز في نفوسنا ويضغط أكثر على مشاعرنا، أنني حكيت لهم كيف وجدت صلاح وبكاءه الصارخ. لقد منع نفسه من الحسرة ونحن معه، حتى لا يضع علينا عبء الشفقة عليه.

منظرنا ونحن ندخن في نهار شهر رمضان وفي قارعة الطريق، لم يعجب الكثيرين ممن يشاهدوننا. كان من المفترض أن يعلموا أننا مجندون. شعرنا قصير جدًا في الوقت موضة الشباب الشعر الطويل. امتعض الكثير من جرأتنا في التدخين خلال نهار رمضان. نمر أمام سينما ريالتو التي فقدت الكثير من رونقها، عجوز كان في لوني الأسمر. وقف نظر لنا وللسجائر التي بين أصابعنا مستنكرًا، وخصني بالنظر المستنكر المحتقر. فنظرت إليه في استخفاف. ضحك أصدقائي الثلاثة على ما حدث من نظرات بيني وبين الأسمر المستنكر. مشى مبتعدًا فلحقت به. قلت له..

-يا عمي إحنا عساكر نفسيتنا تعبانة. اعذرنا.

نظر لي في حنو وقال..

-وابني كمان معاكم. نفسيته تعبانة زيكم. ربنا معاكم يا ابني وترجعولنا سالمين.

جلسنا في مقهى. لم نجلس في الداخل، بل في الخارج، وفي الخارج خلف الشيشة أمام المارة، ونحن نضحك باستخفاف من نظرات العداء والتحقير والاتهام التي تهاجمنا. نحن في ضيق صدر مما نحن فيه، نحن في تَعب وغيرنا على الرغم من أنهم يعيشون معنا واقع هزيمة 67، فهم على الأقل يعيشون في مدنهم وقراهم ووسط عائلاتهم، فلماذا لا يشعرون بنا؟

في بيتي جهزنا غداء لنا نحن الأربعة. ثم ذهبنا إلى السينما. الفيلم اسمه مرح فرح وبطولة الممثلة التي أحبها وأقدرها.. سعاد حسني.

استمتعنا بالفيلم. وذهبنا أولاً لمطعم شهير بالفول والطعمية. ثم سرنا مسافات على الكورنيش ونراقب الناس الذين يروحون عن أنفسهم.

نتحسر على أنفسنا. حولنا مجاميع شباب يرتدون القمصان الضيقة والسراويل التي تنتهي باتساع هائل، أما الفتيات فكثيرات منهن يرتدين ما هو قريب من الميني جيب. قال حودة..

-كلهم يأتون هنا حسب مزاجهم. ويذهبون للسينما في أي وقت. وإلى المقاهي.. إلى الأقارب إلى أي مكان في أي وقت يختارونه. أما نحن.. آآه. فنحن تحت الأوامر وحتى حين نكون في راحة، فنتوقع أمرًا بأن نرتدي معدات الحرب سريعًا، وننطلق إلى قتال أو تدريب مفاجئ أو أي شيء.

الليل غشانا. لا ندخل في حوار مع حودة. نصّار يلقي نكتة لنبتعد عن أي حزن، فنحن في إجازة. أقول في رومانسية..

-انظروا للبحر. تمعنوا فيه. لا يبدو منه شيء، فكله غارق في الظلام، فيما عدا شرائط بيضاء تعلو الموج الذي يخور ثم ينتهي على الرمال مختفيًا. ياله من جمال حزين من جماليات الكون الغامضة!.

يضحك حودة ويسخر مني..

-بطّل بقى. خمس سنين وأنت قارفنا بكتبك وكلامك الهايم المكلكع. خللينا في اللي إحنا فيه يا ابن الخايبة.

ضحكوا علي ثلاثتهم وازدادوا ضحكًا ونصّار يعقب قائلاً..

-ياا!. دا برضه معكننا بكتبه وجواباته في الجيش. نفضى نشوية يفتح كتاب، يا يطلع نوتة كبيرة يكتب فيها جوابات. يخرب بيتك. دا أنت كلكيعة من زمان بقى!

ضحكت معهم ثم نعتهم بالجهل فزادوني سخرية فصمتُ مهزومًا. مرت ساعة زمن، فتحركنا بدون هدف. ونحن نسير هائمين. صاح برهومي مشيرًا لمقهى بسيط على الكورنيش. المقهى يقع وسط مقاهٍ واضح أنها مكلفة. جلسنا في المقهى. نشرب الشاي. دخلنا في نقاش كيف أن البعض يهاجم فيلم خللي بالك من زوزو، لأنه فيلم مرح والبلاد في ترح؟ قال برهومي..

-مش إحنا في مواقعنا على جبهة القتال، بنضحك مع بعض ونهزر ونعملوا مقالب في بعض؟ هو الحبسة والموت اللي بيحوم حوالينا، منعتنا من الفرفشة؟ طب اسمعوا بقى..

وأخذ يصفق ويغني لنا أغنية شائعة وقتها..

-الطشت قاللي يا حلوة ياللي قومي استحمي!

وغنيت معه مقطعًا ثم ضحكنا على أنفسنا وعلى ضحك من حولنا. حولنا شباب وجيل أكبر منا سنًا بينهم سيدة وشابة صغيرة. أحسوا باننا جنود، فسألونا عن أحوالنا وعن القتال وتناقشوا معنا، ودعوا الله أن يحفظنا ويكلل تعبنا بالنصر. ساعة زمن مع أهالينا كبار السن ومتوسطيه، وأيضا بعض الشباب الذي لم يُجند لسبب او لآخر. كانت ساعة أثرت فينا وأعطتنا من الارتياح والرضا أكثر مما للناه من فيلم (خللي بالك من زوزو) إنهم أهالينا.. إنهم عوائلنا..

يقدرون ما نحن فيه من تعب، يحترموننا بل أقول يحبوننا وقلوبهم معنا. ونحن عائدون لبيوتنا بكى برهومي تأثرًا. الناس يشعرون بنا ويتألمون لنا. أصر حودة على زيارة بار قريب ليشرب برهومي زجاجة كازوزة ونشرب نحن زجاجات من البيرة.

صباح اليوم الثاني سافر برهومي عائدًا لكتيبته، وفي الثالث عاد حمادة وفي الرابع عدنا أنا ونصّار. كانت إجازة ممتعة روّحت عنا وخففت من معاناتنا. ولم نقابل برهومي بعدها.. استشهد.

ودخلنا حرب العبور أكتوبر 1973. من ضفة بحيرة التمساح، عبرت كتيبتنا بالعربات البرمائية المجنزرة، فكان عبورنا للبحيرة الواسعة، مفاجأة مذهلة للعدو. فالعبور يجب أن يكون في أضيق مكان بالقناة، فالعربات البرمائية التي نمتطيها، تكون مثل البطة العرجاء خلال عبورها سابحة في المسطحات المائية، فهي تتعرض لنيران العدو فتصيبها بسهولة. لكن نبوغ ضباطنا خططوا بما لم يتوقعه العدو. على جانبينا ألوف ألوف ألوف من جنودنا يعبرون القناة في مشهد بانورامي، لم نكن نتخيل تحقيقه بكل هذه الروعة.

شهيدنا الأول كان قائد كتيبتنا العقيد عادل، وأول المصابين الرائد عمر. نعبر وندمر خط بارليف في إصرار رغم جبروته. وننفدع في صحرائنا صحراء سيناء. نقاتل ونحن في حالة فرحة ودهشة من إتقان أدائنا وجبروتنا في التنفيذ، رغم أننا أقل تسليحًا بمراحل من عدونا الإسرائيلي! لكل هذا فقد سامحت الزعيم المؤمن الذي اعتبرني عمالة زائدة وأنا في غمار الحرب.

عام 1974 خرجنا من الجيش. لم نتذوق طعم النصر النهائي، فمازال عدونا رابضًا على مساحات من سيناء. دماء الشهداء منذ البداية وحتى اليوم، مازالت لم تأخذ ثأرها. فرحة الخروج من الجيش للحياة المدينة لم تكتمل. عندما تعود لنا سيناء، سنكون قد أوفينا العهد لأبي الشهيد حسين، أننا انتقمنا لابنه.

افترقنا كلنا. من بداية خروجي من الجيش وأنا لا أستطع المواءمة مع الحياة المدنية بسهولة. أكيد أغلبية من جندوا وحاربوا كانوا مثلي، ليس من السهل عليهم الاندماج فيما حولهم بسهولة. سنوات المناورات التدريبية المتوالية، والحربان الضروسان رغم المجد والفخر، نحتت فينا الكثير من الأخاديد النفسية، أخاديد عميقة لن تندمل بسهولة.

سنوات عديدة مرت بعد الحرب، والبلد دخلت ما يقال عنه انفتاح اقتصادي. كل الأمور تتغير بسرعة من النقيض إلى النقيض. زلزلتني تلك الظروف. موظف أنا في ديوان حكومي. مكان بشع مقبض. مرتب هزيل مفقر.

لا أستطيع ادخار شيء منه. بالكاد أمر بالشهر. أحزن.. فزملائي في الشركة التي كانت تعمل في السد العالي، والذين لم يجندوا مثلي ولم يحاربوا مثلي سنوات وسنوات. سعداء في شركتهم ومرتب كل واحد منهم يقارب خمسة أضعاف مرتبي! لقد طردني الزعيم المؤمن من عملي وأنا أحارب في حرب الاستنزاف. رحمه الله فقد كان جريئًا حين قرر العبور. كان ذكيًا حين حمّل قيادات الجيش الموهوبة مسئولية الحرب، فكانت النتيجة هذا الانتصار المعجز.

نصّار خطب فتاة طيبة ثم تزوجها. أم نصّار تعلم أن أمي بعيدة عني. أصرت على تزويجي من فتاة تتذكرها حين كانت طفلّة جميلة، تلعب مع ابنها نصّار الذي كان يكبرها بسنتين أو ثلاثة، الطفلّة ليس لها أخوة لا أولاد ولا بنات. ثم افترقت عائلتاهما حيث رحلت عائلة الفتاة إلى الإسكندرية. وصلتها أخبار بأن أم الفتاة ماتت. عرفت أن الفتاة لم تتزوج بعد! غريبة لأن الفتاة بالغة الجمال. جمالها تركي كجدتها البعيدة. أم نصّار رغم أنها كبرت في العمر وزاد وزنها، أتت لي مع نصّار، سافرت لي من القاهرة للإسسكندرية!. باتا ليلتهما معي في بيتي الضيق المتهالك.

كنا على موعد مع عائلة الفتاة. ذهبنا. البيت بجوار مصنع للإسمنت. المكان مفزع. تراب الإسمنت يغلف كل شيء حتى أرضية الشارع. صعدنا للدور الأول حيث ينتظرنا أبو الفتاة. رجل مكسور النفس ملامحه حزينة رغم ابتسامات المجاملة. اشتكى من تراب المصنع الذي يمنعه من استعمال شرفته.

الفتاة عند قريبة لها وعلى وشك الوصول. أنا على شوق لرؤية تلك الفتاة، التي قالت أم نصّار وأيدها نصّار، إنها فتاة رائعة الجمال. وأتت.. أنا ونصّار لم ننظر لبعضنا، فإن نظرنا سوف نضحك. أما أم نصّار فبهتت ولم تستطع قول شيء سوا أهلاً بيكي يا بنتي. أهلاً بيكي يا بنتي. أهلا بيكي يا بنتي. كانت في حرج والفتاة في حرج أيضًا وأبوها في حسرة. الفتاة بالفعل ذات وجه جميل. المصيبة في جسدها.. تكاد تكون في وزن كل الجالسين الأربعة.. أبوها وأم نصار ونصّار وأنا. صمت مدوٍ بما لم ولن يقال. البنت الشقراء صار وجهها في لون البرتقال الأحمر من الخجل. فهي تعلم بلواها وفي حرج وضيق بالغ

مما هي فيه، فما يحدث حاليًا حدث من قبل أكثر من مرة. وكانت لتمنى أن يقبل بها هذا الخطيب الأسمر المنتظر، الذي هو أنا.

شربنا ما شريناه، وقالت أم نصّار لأبي الفتاة سنتصل بكم، فهز الرجل رأسه مستسلمًا، فهذا هو القول المكرر الحزين. قول كثير من عائلات الخطاب ثم ذابوا في أضابير الحياة. مع أم نصار نتكلم عن ظروفنا وظروف عامة الناس الصعبة. أنا ونصّار محتاران.. لماذا لم تتخط خط الفقر حتى الآن؟ هل هو أقوى وأعصى من خط بارليف؟

لصعوبة حضور نصّار إلى الإسكندرية، ولذهابي الاضطراري للقاهرة كل فترة، كنت أنا من يذهب إلى بولاق الفرنساوي، وأقابله هو وعائلته وأصدقاءه. أمه العمر المتقدم يؤثر في حركتها، ناهد تكبر بسرعة، ولم تعد تمازحني مزاح طفلّة.

ثم أدركتني حرفة الأدب. كنت في الأربعين من العمر وتحديت نفسي متخذًا مقولة شهيرة لشكسبير.. أكون أو لا أكون. أكون أديبًا رغم تأخر قراري حوالي عشرين عامًا على الأقل. أصدقائي وأقاربي تعجبوا، وتضاعف تعجبهم من قراري المتهور الثاني، فقد قررت أن أتزوج! كيف وقد فشل زواجي الأول، وحالتي المالية الآن توضع تحت بند.. عشانا عليك يارب؟

أركز على القراءة والكتابة لأعوض تأخري في الدخول في مجال الأدب. ساعدتني قراءاتي السابقة كثيرًا، أتقدم سريعًا وأتحقق كأديب له شأن، وأتزوج في نفس البيت المتهالك. حققت نفسي وكنتُ، رغم معطيات ألا أكون.

نصّار في بالي. أمنية من أمنياتي أن أدعوه هو وزجته وابنه، ليقضوا معي أنا وزوجتي أسبوعًا على الأقل، ونذهب بهم إلى البحر كل يوم، نسحدهم ويسعدوننا. أمنية مضطر لتأجيلها حتى تتحسن ظروفي المادية، وحتى أسكن في بيت ثابت يتسع لنا؛ لنصّار وزوجته وابنه.

الشهور تمر والسنوات. يتوفى والدانا وبدا الشعر الأبيض يغزو جيلي بكثافة، وأكيد يغزو شعر نصّار. فقد تركنا الجيش منذ حوالي خمسة وعشرين عامًا. أمر كثيرًا في شارع 26 يوليو، وأنظر لقهوة 23 يوليو التي على حافة حي بولاق الفرنساوي. أشتاق للزيارة ولا أستطيع. فأنا أحضر مضطرًا للقاهرة، وأعود في نفس اليوم حتى أوفر تكلفة المبيت. وكلما مررت بجوار بولاق الفرنساوي، ألاحظ التغييرات، وانسحاب الملابس البلدية، وطغيان الملابس الإفرنجية، والملاءة اللف التي سحرتني، تكاد تكون قد انمحت. أحزن لأنني لم أستطع حتى الآن دعوة نصّار وعائلته لكي يأتونا. وتمر السنون سريعة في حال وبطيئة في أحوال أخرى.

بدأت أنال شهرة أدبية ضئيلة ويتحسن مرتبي. قلت هانت سأزور نصّار واثق الخطى أمشي ملكًا، وسأرى ابنه الذي لم أره منذ كان طفلاً. وسأرى ابنه الثاني. وأسأل عن ناهد التي كانت طفلّة وتزوجت من سنين، وتقول إنها لم ولن تنساني مثلما لم ولن تنس خالها نصّار.

ثم نلت صدمة أصابتني بالانهيار، مات نصّار.

(((((((((

7-كبدة ابن الهرمة

بَضانَة ألصق نفسه بعليوة فصارا صديقين رغم الفوارق. من الطفولة للمراهقة معًا ضمن مجموعة من الأصدقاء. عليوة لا يفهم في جمع المال لكنه قوي مهيب، بَضانَة لا قوي ولا مهيب، لكنه شاطر في جمع المال. ولما صار عليوة فتوة ألح عليه بَضانَة أن يشاركه في دكانة صغيرة يجعلانها لشي الكبدة وبيع سندوتشاتها. المطلوب من عليوة المساهمة بالمبلغ الأكبر، ومطلوب من بَضانَة أن يقوم بإدارة الدكان ومحاسبة عليوة بالحق والحلال. عليوة يعرف كما يعرف غيره أن بَضانَة لا يعرف حقًا ولا يعرف حلالاً، يكاد أن يكون نصابًا. وافق عليوة ليساعد بَضانَة اللحوح. كل هذا وبَضانَة اسمه بَضانَة، رغم أنه أصلاً اسمه غير هذا تمامًا، لكن من رخامته وغتاتته المتفردة أطلقت عليه شلة الأصدقاء لقب بَضانَة، وهذا اللقب العامي، مأخوذ من قطعة ما في جهاز الرجل التناسلي، تضايق ولا تتحمل الضغط عليها. لم يتقبل بَضانَة اللقب لكنه التصق به فصمت مرغمًا.

دكانة الكبدة لافتتها تقول.. كبدة الصديقين. أي عليوة وبَضانَة. الدكانة اشتغلت تمام، وصارت مزدحمة بالزبائن، حتى أن بَضانَة أخذ حيز الرصيف أمام الدكان ووضع فيه الوابور وحلة الشي وخلافه، أما داخل الدكان فمخصص للعيش وزجاجات الزيت وعلب الطحين إلخ.

ثم أتى باثنين من المراهقين يساعدانه. وهنا تحول بَضانَة من بَضانَة حاف، إلى المعلم بَضانَة، وأصر على أن ينادونه بالمعلم بَضانَة، أو المعلم فقط. كلما يوشك المراهقان على فهم شغل تحمير وتحضير سندوتشات الكبدة، يطردهما المعلم بَضانَة واحدًا بعد الآخر، ويأتي بغيرهما. أحد الفتية المطرودين فتن على بَضانَة، وأكد أن المعلم بَضانَة، يبقى طوال اليوم يعمل في الدكانه بدون اللباس الداخلي، سواء في الصيف أو في الشتاء! هذا بسبب سخونة النار الصادرة من بابور الجاز الذي علوه من علو وسط المعلم.

الأمور سارت طيبة في مظهرها، رغم شك عليوة أن بَضانَة يسرقه! لكن الفئران بدأت تلعب في عب عليوة، بعدما قرر بَضانَة الزواج، وأقام عرسًا هائلاً في فخفخته! من أين كل هذه الفلوس يا معلم بَضانَة! يقولك ربنا بيبارك في قليلة!

عروس المعلم بَضانَة، فتاة فقيرة اسمها نونّس. الفتاة فوق أنها شرهة طماعة سليطة اللسان، فهي لا تمتلك أيًا من جمال الإناث سوى صدر وافر. وقفت نونّس معه في الدكان حتى تضخمت بطنها، فتركت العمل وبقيت للولادة ثم سنة رعاية طفلها، ثم عادت نونّس وهي تحمل رضيعها لتراقب شئون الدكان. الزبائن يكرهونها لسلاطة لسانها ووجهها المكشر دومًا، وأطلقوا عليها نونّس الشَلَقْ.

ترك عليوة شغلانة الفتونة وذهب ليعمل في الدكان. لم يستطع العمل فهو لا يدري به شيئًا، فبقى واقفًا أو جالسًا بجوار الدكان يدخن الشيشة ويشرب الشاي. نونّس ظاهر على وجهها كراهة عليوة. أسبوعان وبدأت المشاحنات بين عليوة وبَضانَة. عليوة يصر

أن الدكان يأتي بربح يومي أكثر بكثير مما يدعيه بَضانَة، وبَضانَة يقسم له بكل الأيمانات أن الحسابات هي كما يقول تمامًا. ولما تدخلت نونّس وحادثت عليوة بأسلوب لا يليق بشريك أو بفتوة سابق، ثار عليوة عليها، ولأنه لا يريد ضرب امرأة، أمسك بالمعلم بَضانَة وصفعه صفعات متوالية حتى هرب بَضانَة من أمامه. نونّس أخذت تلعن عليوة وتنعته بالجاسوس الطماع، صفعها بالكف على وجهها فسقطت أرضًا تولول. بَضانَة أمسك بعصا وهجم على عليوة، فأمسك عليوة بذارعه التي تحمل العصا ولواها. أسقط العصا من يده وألقاه أرضًا على بطنه. حاول بَضانَة أن يقف لكن عليوة بباطن قدمه داس على ظهره فلم يستطع بضانه الوقوف. خطأة الأكبر أنه لعن عليوة بنفس كلمات زوجته نونّس. وهنا مال عليوة على النصف التحتاني لبَضانَة، ورفع جلبابه فعرى مؤخرة المعلم بَضانَة وبصق عليها وتركه وابتعد.

بعد هذه المعركة أطلق الناس على المعلم بَضانَة، المعلم المفضوح. فلم يتقبل هذا الاسم وصار يتشاجر مع من ينطقه. عليوة نسى مؤقتًا حقه المالي من دكان الكبدة. فمازال في جيبه بقايا نقود من عمله في الفتونة. أشهر وقال له الناس إن ربنا جاب له حقه. كيف؟ المعلم المفضوح مع وفرة المال معه، تزوج بفتاة جميلة وأسكنها شقة معتبرة بجوار دكانه. هنا جن جنون نونّس الشلق، تدعي أنها شريكته وهي سبب الأموال التي دخلت جيبه، هاجمته في الدكان وسبته وفضحته مؤكده أنه يسرق نصيب عليوة. ولما هجم عليها وضربها صارت تسبه بلقب ابن الوسخة. فرقوا بينهما.. فأتت صباح اليوم التالي تسبه بلقب ابن الوسخة. وفي المساء وفي الصباح

التالي وفي المساء إلخ، حتى تمت المصالحة بأن تكون لنونّس الشلق المكانة العالية على زوجته الثانية.

ولما أخذ اسم المعلم ابن الوسخة في الثبات، إذا بالذي كان لا يطيق نعته باسم بَضانَة، يقبل به ويصر على أنه اسمه.. المعلم بضانة. رفض أيضًا حين أطلقوا عليه اسم المعلم المفضوح، بعد أن فضحه عليوة، ثم ركبه مائة عفريت غاضب من تسميته بالمعلم ابن الوسخة. يصر على مناداته بالمعلم ثم اسمه الأصلي قبل بضانة، لم يلتفت إليه أحد، فقلل من طموحة، ورضي بأن يكون اسمه المعلم بضانة، فهذا أقل قسوة من ابن الوسخة. لكن الناس لهم رأي آخر، ورأيهم هو الذي يسود. أصروا على تسميته بالمعلم ابن الوسخة.

رسخ اسم المعلم ابن الوسخة، ثم لسوء حظه، مسح الناس كلمة المعلم، وصار اسمه ابن الوسخة. ومع الوقت لم يعد نعت ابن الوسخة سبابًا! أبدا. صار مجرد اسم لا يحمل أي محتوى من الوساخة! الزبائن أمام الدكان يتعجلونه..

-خلصنا بقى يا ابن الوسخة.

فيجيب..

-حاضر حاضر. دقيقة بس.

طفلّة صغيرة تأتي وترفع يدها بالنقود، لكن الزحام يحجبها فتصيح..

-مشيني أنا جاية من ساعة يا ابن الوسخة.

استسلم ورضى، فكونه ابن الوسخة لم يمنع مكاسبه التي تتوالى، وتراكم مدخراته انتظارًا لبناء بيت يملكه. أبناء ابن الوسخة، ولدوا من زوجتين وشبوا وهذا الاسم النعت متواجد، وراسخ كاسم شهرة لا يؤذي ولا يجلب السخرية، إلا لمن يسمعه لأول مرة.

لكن ليس هذا الاسم بغريب تمامًا، ففي ركن قريب من وسط البلد بعد تقهقرها، بالقرب من شارع شامبليون الذي صار كالتي ترقص على السلم، لا هو من أرستقراطية وسط البلد، ولا هو من رائحة بولاق! ظهرت دكانة كبدة مشهورة، صاحبها اسمه الحرامي! عادي. الأدهى دكان الفسيخ ذو اللافتة التي تقول.. فسخاني الـ تيت تيت. هذا النعت صعب، بل مستحيل أن يُكتب بكل هذا الصراحة، فهو نعت للذكر المثلي السلبي.

لما أفلس عليوة، ذهب وضرب ابن الوسخة، ولم تنته المعركة إلا بعد أن دفع ابن الوسخة تعويضًا كافيًا من المال، مقابل فض الشراكة بينه وبين عليوة، على أن يكون الدكان تابعًا لابن الوسخة فقط لا غير. وصارت تلك الصداقة والتي تحولت لشراكة ثم انتهت بخناقة، صارت ذكرى عند عليوة الذي كان فتوة وتاب، لكن ابن الوسخة لم ينس ما جرى له وما ناله من ضرب وفضح. فبقي حاقدًا يأتي بسيرة عليوة بالسوء دائمًا، ويشمت فيه كلما وقع الزوربا في دحديرة أو ما شابه، ويفرح بنفسه كلما كسب المزيد من المال، حتى بني بيتًا ثم عمارة، واعتبر هذا انتصارًا على عليوة الذي استمر في نفي حجرته.

(((((())))))

8-عليوة الزوربا

عليوة الزوربا من أشهر علامات بولاق الفرنساوي وأكثرها جاذبية. سيرة حياته حُكيت سنين عديدة في أنحاء بولاقة الفرنساوي. قبلها عمل في أعمال عديدة. صبي كواء وهو طفل، ثم عمل صبي بنّاء ثم ضرب معلمه واشتغل حمالاً إلخ، ثم حقق تغريبة هلالية شجية إلى الإسكندرية، وهي تغريبته الأولى الزاهية. ثم كانت سنوات الفتونة القليلة. ثم تغريبته الثانية المؤلمة.

حين تعرفت على عليوة الزوربا، حكى لي نصار عنه.. هو رجل متداخل مع الكل. خدوم للكل وفي الأفراح هو الذي يبث المرح ويهيئ الجو للرقص والغناء. يلاغي الكل ويهنئ الجميع ويبتسم لهم وكأن كلهم من أقرب وأعز أصدقائه. ساعة زمن وتتنطط في رأسه كؤوس الخمر التي تجرعها. يرقص ممسكًا بالمطواة ويمثل أنه بطل معركة شوارعية خطيرة، ثم يقبض على مسند مقعد خشبي، ويرقص به ويقاتل ويصيب أعداءه، ويستمر في القتال حتى يصيبه عدوه. فيترنح الزوربا وقد وصل لغاية الاندماج في الرقص والتمثيل وهو يتلقى التصفيق وصيحات الاستحسان. لم يعترف أبدًا أنه تعلم هذه الرقصة حين رحلة اغترابه الأولى في الإسكندرية. وحين أفحمه الأصدقاء بأن تلك الرقصة بالتمام والكمال شاهدوها في فيلم (أبو أحمد) بطولة فريد شوقي، لم يعترف بل قال مرة وهو مخمور..

-لا. بل فريد شوقي شخصيًا شاهدني أرقصها، فأتى بالراقص الشهير ليقلدني.. آه.

ثم تطورت سيرة عليوة من المحارب الراقص السكندري، إلى شخصية أكثر شهرة وأكثر فتنة وأكثر غرابة. فقد نال لَقَبْ زوربا! أتاه اللقب من فيلم زوربا اليوناني، فأصدقاؤه شاهدوا الفيلم معه في سينما علي بابا، ووجدوا تشابهًا بين عليوة وأنتوني كوين الذي قام بدور زوربا، وتشابه أيضًا في الطباع، الفارق أنهم أقروا بأن عليوة الزوربا اندفاعاته انقح من اندفاعات زوربا اليوناني، وأنه أيضًا، أي زوربا البولاقي فَقري أكثر من زوربا اليوناني.

عليوة في مراحل عمره المبكرة، كان في خدمة ناس الحي، خدوم لكل الناس، من يعرفهم ومن لا يعرفهم. في الأحزان حين تموت نفس. يشارك أهل الميت في حزنهم ويكاد يبكي. ثم يحمل النعش مع غيره لأطول مسافة ممكنه، ثم يتلقى العزاء مع عائلة الميت رغم أن علاقته بالميت وأهله، لا تتعدى أنهم من حي بولاق الفرنساوي فقط لا غير. وتنتهي مراسم العزاء وعليوة ربما لا يعرف اسم المتوفي! لكن لا يهم، المهم الواجب لازم يتعمل مع أهل الحتّة، أهل بولاق الفرنساوي. وأهل الفرنساوي يعلمون طبعه الصادق ويحبونه ويقدرون شهامته.

وحين عمل فتوة، لم يضر بأي من الناس، فقط ضرب وأخاف الفتوات المعادين لمعلمه. ولذلك حين يتدهور به الحال، وهذا يحدث له كثيرًا، لم يكن يحمل هم طعامه أو هم سجائره أو حتى واجبات مزاجه، فالكل يسعده أن يشاركهم عليوة الزوربا في طعامهم

ومزاجهم أيضًا، سواء كان مزاجهم هوائي حشيشي، أو مزاج مائي كحولي، أو المزاجين معًا.

عام 1956 وقع العدوان الثلاثي على مصر. بريطاني فرنسي إسرائيلي، كان عليوة شابًا، تطوع في المقاومة الشعبية، واستلم بندقية وتعلم ضرب النار. رفضوا إرساله لخط القناة ليحارب، قالوا حين نحتاجك سنرسلك. واستعد عليوة للدفاع عن بولاق الفرنساوي.

يمر مع غيره في الشوارع ليلاً، لينادي بصوت جهوري طالبًا من السكان إطفاء النور، فطائرات الأعداء يمكن أن تأتي لترمي بقنابلها في أية وقت. لم يتم تجنيده لأنه وحيد والديه. لم يكن متحمسًا لحرب اليمن، كان حائرًا بين أناشيد مصرية زاعقة تؤكد النصر المبين، وخطب الزعيم الساخنة، وبين أخبار من يقتلون من جنودنا هناك. ثم صار ضد هذه الحرب بعد سنوات طويلة، تمامًا مثلما كان ضد صفقات الانتخابات المزورة، فلم يشارك فيها رغم أن العديد أتوا له في المقهى وأغروه بالأموال.

أما في هزيمة 1967، فقد بكى دمًا. لم يمل من الاستماع لأخبار تلك الهزيمة المؤلمة، لكنه لم يقم يومًا بما يقوم به الكثير من رواد المقاهي، فيتخيل نفسه مارشالاً يفهم في الحرب فهمًا عميقًا، فيدلي بما يشخشخ في عقله من ترهات على أنها بديهيات، كان على الجيش أن يتبعها. ولما كانت محاكمة القيادات المهملة، انتظر غاضبًا، ولما أصدر القضاة أحكام دلع هينة لينة، كان من ضمن المتظاهرين الثائرين مع الطلبة.

في بولاق الفرنساوي، كان عليوة الزوربا هو أول صديق اكتسبه هناك. كيمياء محبة جمعت بيني وبينه. ليلتها عليوة كان جالسًا في المقهى، يضع ساقًا على ساق وبجانبه على منضدة معدنية فنجان قهوته السادة. سلمنا عليه باليد فسلم وهو جالس، فقط أنزل ساقه عن ساقه، فهو أكبر عمرًا منا، بتشوه خده الأيسر ظننت أنه في نهايات الخمسينيات، لكنه كان فقط في نهايات الأربعينيات! ونحن في العشرينيات. ابتسم لي من قلبه وبادله قلبي السلام.

عندما عرف أني رغم سمرتي من أبناء الإسكندرية، فأطلق علي لقبًا تمسك به طوال سنين صداقتنا. ضحك عليوة الزوربا وقال..

-أهلا أبو إسكندر الأسمر.

لكن.. بمجرد أن قال له نصّار إن هذا صديقي مجند في الجيش، إذا به يقف على قدميه ويأخذني بالأحضان. ثم بقى يمدح ما نقوم به من واجب وطني، وأكد أنه كان يتمنى أن يكون معنا، لكنه كبر في العمر. أخذ يطالبني بأن أصر إصرارًا على استرداد شرف مصر. فوجئت به متحمسًا وطنيًا عميقًا. كلماته بسيطة لكنها ليست سطحية، كم هو صادق في مشاعره، ولم أنس حين احتضنني قوة جسده وتماسك عضلاته، وتذكرت ذلك بعد حوالي ثلاثين عامًا، وقد بلغت من العمر مثل عمره الآن، وهو كان قد بلغ من العمر عتيًا، وقتها كنا في بدايات الثمانينيات.

بعد صداقتي لعليوة الزوربا صرت صديقًا لثلاثة أساسيين آخرين، زهدي العريض، وكلمة العريض وصف له كان يعجبه، فهو ذو صدر

قوي ورقبة غليظة وصوت قوي وأكتاف عريضة، مع عقل بسيط. وشقيقه الأصغر اسمه فايق، وفايق متخصص في متابعة البنات، فصار اسمه فايق بتاع البنات. هوايته التعرف والتسنكح مع أكبر عدد ممكن من الفتيات. وهو فعلاً وسيم لكن ليس بمستوى وسامه حسن زيادة، وعائلته بالطبع لا تصل لمستوى عائلة حسن زيادة في المكانة المادية أو الجمالية، وهذا يحزن فايق وحزنه دفعه للغيرة والحسد والحقد. أما الثالث فهو محمد الضائع. من صغره يعاقر الخمر بأخوة توأمية سيامية لا تنفصم. سكران في كل أمسية، تائه في كل نهار، لكنه لا يتسبب في مشاكل عويصة، بل هو باعث لفرفشة وضحك الجميع. مشاكله تأتي من اقتراضه المال ولا يرد قروضه بسهولة، الدائنون يصبرون عليه لخنوعه وتذلله لهم ببكائيات تمثيليه متقنة. أما من ينقلبون عليه ويهينونه، فلن يطولون منه أي مردود.

عليوة الزوربا نجم الشارع والمشهور في بولاق الفرنساوي كله، بعد سنوات من معرفتي به، حين أطلق صيحته العنترية التي تبين أنه كفر بالعمل، وأنه قرر أن يكون عواطلي بالضرورة النفسية، صار رزقه اليتيم من البيت الذي ورثه مع شقيقتيه. بيت صغير ضيق من دور واحد، وأيضًا من شقة واحدة ذات ثلاث حجرات! بعد موت الوالدين صار هو وأختاه يسكنان الشقة اليتيمة، عليوة له من الميراث حجرتان، وأختاه لهما حجرة معًا. لكنه ترك حجرة من نصيبه لأخت منهما، فتزوجت كل منهما في حجرتها. أخته الصغرى تركت البيت بعدما تحسنت أحوال زوجها، وعندما تحسنت أحوالها أكثر وأكثر، لم تعد تود لا أختها ولا أخاها. عادت حجرتها لعليوة،

الذي من بعد عيشة معقولة، هجم عليه الفقر بثقله، فأجّر الحجرة لعائلة فقيرة، ومن إيجارها البسيط، صار ينفق على بعض أساسياته.

في مطلع شبابه وقبل أن يصل لسن العشرين، تزوج من فتاة صغيرة، ولم تكن غرفته قد تحولت لزريبة بعد. لم تتحمل عروسه طبعه الفوضوي مع فقرة. طلقها فتزوجت غيره سريعًا مما أحزنه. ضربته الحيرة.. لماذا لم تستطب العيشة معه؟ ولماذا أسرعت لتنضم لرجل آخر هكذا سريعًا؟! وما هو عيبه غير الفقر، والفقر سائد فيما حوله؟ أخته بينت له أنه فوق فقره وفوضويته، كان خشن المعاملة مع من تزوجها، وشرحت أخته أنها تعلم رقته، لكن رقته مخفية لا يحسها سوى أصحاب القلوب الرقيقة، والتي طلقها فتزوجت غيره سريعًا، فوق أنها فتاة صغيرة، فهي لم تكن ممن قلوبهن رقيقة. أصّرها في نفسه وقرر أن يكون غنيًّا، فقبل أن يعمل فتوة. كسب المال الكافي ولم يهتم بتجديد بيته، اهتم بملبسه والصرف على أخته الأرملة. لكنه لم يتزوج، صار عدوًا لفكرة الزواج ومفضلاً فكرة العشيقات. يتخذ عشيقة بعد عشيقة. مكانه الذي يلتقي فيه بعشيقاته، هو حجرته العتمة القاتمة. الغلبان الذي أجر منه حجرة لا يستطيع الاعتراض. أما أخته فتساعده وتصادق كل عشيقة لأخيها، فأخته تقوم بدور الأخت والأم والصديقة الصدوق لأخيها الوحيد عليوة الزوربا.

بناء على سمعته السابقة، كفتوة شديد المراس. أتاه مسئول عن سينما علي بابا. الرجلان اللذان يقومان بحفظ النظام في السينما، ويشكمان انفلاتات بعض الرواد، ليسا بالسطوة المطلوبة. قبل

عليوة الزوربا العمل، وفرض النظام على الجميع. لم يعد أي شاب أو أي رجل أو أكثر من فرد، يجرؤ على الإخلال بالهدوء والنظام في داخل السينما أو حتى بالقرب من بابها.

عليوة كان على خُلق فرسان الفتوات، منع أي مضايقة للمغرمين الذين يلجؤون لظلام السينما، فيخطفون بعض القبلات وما أكثر قليلاً. قبل سابق كان الشابان يفرضان ضريبة على المغرمين، رفعها عنهم عليوة، لكن من يريد إعطاء بقشيش فلا مانع. بهذا النظام السامي، أصبحت نصف صالة السينما، وتقريبًا كل البلكون، معبأة بالثنائيات فتى وفتاة. رجل وامرأة. ولما أخذها بعض الحقراء فرصة، ليأتوا بنساء يتخذن السينما وكرًا ليأتوهن الراغبين في الفحشاء، مقابل مبالغ ليست هينة، ضربهم عليوة ضربًا وفضحهم فضحًا. فقاعة وبلكون السينما للمغرمين الهواة لا للمحترفين.

لامه أصدقاؤه وقالوا إن هذا نوع من القوادة! غضب. قال..

-أنا رحيم بالغلابة اللي مش لاقيين مكان يفضوا فيه حاجتهم. ومش جابر حد يدفع. يبقى أنا بعمل خير ولا لأ يا بهايم.

سهراتنا في بولاق الفرنساوي غالبًا ما تكون مجرد القعود في قهوة سلامة. وبما أن لا مكان للجلوس داخلها، فمساحتها لا مساحة. الزبائن يجلسون على المقاعد المرصوصة على الرصيف الضيق الذي لا يسمح لاثنين أن يجلسا متقابلين، ممكن بجوار بعضهما. سهراتنا في القهوة بسيطة لا تتحمل الأمزجة الخاصة. فإن كان المزاج في سهرة تخفف مواجعنا أنا ونصّار، هنا تنقسم سهراتنا لأفرع ثلاثة

والثلاثة يجمعهم قلة النقود، فكلنا على قد الحال، الأولى مقهى شارع شامبليون الهادئ شبه المظلم ليلاً، لنذهب للقهوة التي يحب موريس الجلوس فيها. وقليلاً ما يكون معنا عليوة الزوربا، ومعروف أنه لا يحب الخروج من عرينه البولاقي.

نقفز للثالثة. مع حسن زيادة، وهي بالغة الخصوصية، أنا ونصّار فقط معه لنسهر مع ابن المحظوظة في أماكن مرفهة، فلا أنا ولا نصّار، ميزانيتنا تسمح لنا بالجلوس في تلك الأماكن التي ترتادها الطبقة المتوسطة وما هم أعلى. أنا ونصّار من الطبقة التي هم تحت.

أما الثانية فهي سهرة فَقَيْري أكثر من غيرها، ذات ميزانية منحطة بالنسبة لكؤوس الخمر التي قررنا احتساءها، سهرة على مستوى ما يقال عنه كُحّيتي. بمعنى إيدك والأرض. ونكون أنا ونصّار بالكاد نمتلك حق مواصلات العودة لكتيبتنا العسكرية، وهي مبلغ بسيط فعلاً، لكنه في حالة الكُحّيتي يكون مبلغًا باهظًا. السهرة تكون في حجرة عليوة الزوربا! ويُطلق عن حجرة الزوربا نعوت عديدة، خمارة الزوربا أو تربة الزوربا أو عتمة الزوربا. أما النعت الأشهر، فيقال عنها زريبة الزوربا. نطلب منه السهر عنده، وبالضرورة السهرة عنده تكون ذات نكهة زاعقة، ففيها لا نشرب خمورًا رديئة، لا، بل هي خمور رديئة ومضروبة معًا! أي خمرة تحوي كل رزايا الخمور، وليس فيها من مزاياها سوى أنها تحوي كحولاً بالزيادة المفرطة.

وعليوة الزوربا كهل لطيف المعشر لطيف الروح خفيف الدم، قرر أن كل همه في الدنيا أن يستمتع فيها بكل أنواع الاستمتاع، لكن بشرط.. ألا يعمل! يقول عملت سنوات طالت حتى عطست بتراب

بولاق وشرقت بمياه بحر إسكندرية المالح. ألا يكفي كل هذا؟ لم أسمعه ليلة يسخر من إنسان، وفي نفس الوقت لا يقبل أن يهينه أي إنسان شايف نفسه، أي مغرور بشهادة دراسية عالية، أو مركزه الوظيفي، أو إنسي يتكبر عليه بسبب غناه. زوربا مستعد لإشعال معركة مع هذه النوعيات والتبجح بقدراته القديمة، حيث كان فتوة فوق كل الفتوات. ولا مانع عنده إن احتدمت المعارك، أن يستعين بمقعد المقهى، أو يلتقط زجاجة من رقبتها، ويضرب قاعها على حافة منضدة فتتهشم حافة مؤخرتها، وتصير سلاحًا بشعًا يشوه الوجوه، وإن أصابت الرقبة فهي سلاح يقتل. الزوربا خاصة في بداية شبابه، دخل معارك عديدة وانتصر فيها كلها. وأشهر تلك المعارك أصبح يؤرخ بها! فيقولون.. هذا حدث في أيام معركة الحمير، أو معركة الزوربا ضد صاحب الفرن المفتري إلخ. الزوربا حريف قتال شوارع بشهادة كل شوارع الحي.

حين نقرر السهر في حجرة عليوة الزوربا، أولاً نبعد محمد الضائع مهما ألح علينا ليشاركنا السهرة، فالزوربا لا يطيق تذلله الدائم ليكتسب شفقة الدائنين. لذا لا يسمح له حتى بالجلوس معه في المقهى. حاول الضائع أكثر من مرة، وفي كل مرة يصرخ الزوربا..

-المقرف دا ابعدوه من هنا.

الضائع يومًا نسي نفسه ونسي جبروت الزوربا، كنا حول منضدة معمرة بسندويتشات الكبدة. أقبل علينا الضائع وألقى السلام وصرخ فرحًا..

-كبدة ابن الوسخة! أنا جعان قوي.

مد يده بسرعة والتقط سندويتشًا، فإذا بالزوربا يطيح بالسندويتشات أرضًا ويقف ليضرب الضائع، فأسرع الضائع هاربًا ومعه السندويتش الذي التقطه.

ترجينا كبيرنا عليوة الزوربا أن يتحمل الضائع لو من أجلنا. لان لنا وقال في تأفف..

-حفكر.

(((((())))))

9-عليوة الزوربا والمعلمة فلّة

تعرف عليوة الزوربا على امرأة شابة سكندرية، معلمة قوية الشخصية تأتي للقاهرة لتنهي بعض أعمالها المتشابكة. أي أنها سيدة أعمال بالمفهوم العربي، لا بالمفهوم الإفرنجي . مُعلم من بولاق له معها تجارة، دعاها لدخول السينما الشهيرة في الحي. جاءت بملبسها الرسمي، الملاءة اللف التي لا تغطي لا ذراعيها ولا نصف صدرها العلوي طبعًا. كانت في حالة انبساط كعادتها، تضاحك المعلم والثلاثة الذين رافقوهما. فوجئت المدعوة بجمال السينما الخارجي والسلم الحلزوني الذي يصل إلى حجرة تشغيل الأفلام، وفي داخل السينما كان إعجابها بالسينما أرحب وألذ، فقد استقبلهم عليوة الزوربا بالترحاب، وأجلسهم في أفضل المقاعد، ثم طلب لهم زجاجات المياه الغازية على حسابه. في عبق سينما علي بابا، ومن الثواني الأولية كانت نسمات عاطفية طرية تهفهف، نسمات بداية حكاية شغف جمعت بين الاثنين.. عليوة وفلّة. النسمات الطرية الهفهافة.. انقلبت سريعًا لأعاصير عشق لعبت بقلوبهما لعبًا، وحفرت فيهما أخاديد وتجاعيد هي الألم واللذة معًا.

الوَلَه توغل في قلبي الفتوة السابق عليوة، والمعلمة الفاتنة فلّة، لم يخف الأمر على المعلم الداعي لها، ولا على من رافقوها. المعلم الداعي يلف ويدور عليها لينال إعجابها، ثم لتكون بينهما علاقة

جسدية سائبة، وإن رفضت تلك العلاقة السائبة، فهو مستعد آن يتزوجها على زوجتين سابقتين. المعلمة فلّة، أرملة فقد تزوجت وهي صغيرة من معلم يكبرها سنا بخمسة وثلاثين عامًا. مات زوجها وترك لها ورشة النجارة وولدًا صار الآن في الثامنة من عمره.

فلّة ضحكت على لقب الزوربا! شرحوا لها سبب التسمية، وبعد خروجهم من السينما، أضافوا لمعلوماتها عمله كفتوة سابق، وحكوا أشهر معاركه خاصة معركة الكايبوي الحميري، وتحطيمه للمقاهي التي حطمها، فالزوربا حريف معارك وقاسٍ بشع في عراكه. وأضافوا معلومة طلاقه الأول واستحالة ترويضه، ثم أنه فقري. الغرض إبعاد فكرها عنه، ومسح اهتمامها به.

وبدلاً من أن تقلق فلّة من كل تلك الوشايات، مالت لعليوة أكثر. أعجبت بأسلوبه المرح معها وجدعنته، ولم تتناس هيئته كشاب طويل عريض الكتفين شَرِح الوجه رغم التشويه الغائر قليلاً في خده. أصرت على الاقتراب منه وسألت عنه خفية اثنين من المنصفين. قالا إن الزوربا بعد معركة الكايبوي الحميري، ترك عمله كفتوة، وصار نصيرًا للناس الغلابة، يأخذ حقهم من المفترين من أهل الحي. ثم ترك كل هذا بغير رجعة. عندها قالت لنفسها وبثقة الست القادرة..

-حتجوز الزوربا يعني حتجوز الزوربا. هو ده اللي أنا عايزاه. هو ده اللي كنت بدور عليه.

وعليوة وصله من الواشين، كلام من المفروض أن يصيبه بالقلق، أن المعلمة فلّة لها تجارة في المكتوم، وأن هذا المكتوم يكسف

الحُر. فلم يتراجع الزوربا عن هيامه. قال لنفسه وهو في حالة ارتباك وضعف..

-آه لو أتجوز الست دي؟! يبقى يوم المنى.

فلّة عرفت انها لن تستطيع نسيانه، سنتان محرومة من الرجال، الآن لن تستطيع الصبر، فهي للزوربا والزوربا لها. بدأت اللعب كامرأة مفطورة على حركات وإيحاءات النساء التي تطيح برؤوس الذكور. تركته أسبوعين يتحرق شوقًا إليها، ثم أتته بعدها وناغشته، كان عليوة الزوربا مستويًا تمامًا ويتحرق شوقًا إليها، فقد وعدته بأنها ستعود للقاهرة، وستدخل سينما علي بابا. صار الفتوة السابق عاشقًا هفتان الشخصية فاقدًا للتماسك أمام فتنتها. لم تمض أيام، وإلا هو يهجر سينما علي بابا، ويهجر حي بولاق الفرنساوي وكل القاهرة، من أجل المعلمة فلّة! ندهته الندّاهة الأنثوية.

حفل زواجهما كان مزدحمًا والأنوار جعلت الشارع نهارًا ساطعًا ملونًا، ورغم قالت فلّة أن الفرح بسيط مثلما طلب عليوة! حفل زواجهما كان بسيطًا حسب طلب عليوة. شاهد عليوة ما لم يكن يتخيله، «معلمين السوق» من كل الأعمال، ينقطون المعلمة فلّة بمبالغ لم يكن يتوقعها، في حيه بولاق الفرنساوي، يوجد نظام النقطة، والبعض ينقّط بمبالغ كبيرة، لكن هذه المبالغ الكبيرة، تعتبر تافهة هنا! كم يكسب هؤلاء المعلمون حتى يصرفوا كل هذه الأموال؟ وكان أحلى ما قُدم في الحفل، المطرب الشيخ أمين والراقص السكندري حلال عليه، الذي رقص رقصة سكندرية تكريمًا للمعلمة فلّة. رقص بالمطواة والكرسي مصورًا معركة شرسة بينه وبين

أعدائه. العريس عليوة وقع في حب الثنائي الذي شاهده.. الشيخ أمين والراقص الهاوي حلال عليه، فصادقهما، يذهب لأفراح الشيخ أمين وينقط العروسين وينقط الشيخ أمين، أما الراقص المبدع حلال عليه. فعليوة يذهب لدكانه ويجالسه بالساعات. لم يبلغ فلّة فهو يريد عمل مفاجأة لها ولغيرها. سهر مع حلال عليه فصارا صديقين حميمين. وهنا حلال عليه دَرّب عليوة على رقصة المطواة والكرسي. صار عليوة بارعًا.

بيت المعلمة فلّة رائع ويحوي الكثير من دلائل البحبوحة، لكن ما أعجبه وأراحه وأدهشه أكثر، أن حجرة النوم بها شباك وشرفة عريضة، وكلاهما لهما شيش وزجاج وستارة بيضاء رقيقة. يستطيع أن يقف في داخل الغرفة ويتطلع ببساطة على العالم الخارجي! ويستطيع أن يقف في الشرفة ويتنسم الهواء ليلاً، ففي النهار يخجل من تواجد جيران يشاهدونه، رغم أن المسافة ليست قريبة. يضطر للجلوس أرضًا ويدخن سيجارته، فارق بين حجرة نوم فلّة وحجرة نومه الزريبة، ففي حجرته لا يوجد سوى طاقة صغيرة يغلقها بقطعة خشب أبلكاش، وهي تطل على منور البيت، أي لا تطل على شيء، فقط تأتيه روائح لا تسر.

فوجئ عليوة سنة أولى زواج مع المعلمة فلّة. هي سنة اللذة المصفاة. هي حلاوة الدنيا التي لم يكن يعرفها ولا يتوقعها. أنثى هي نبع الأنوثة التي تنطلق منها كل أنواع الإناث. سنة لم ير غيرها ولم يسمع غيرها، ولم يشعر خلالها بأي أمور حياتية أخرى حوله. صارحته وهي في حضنه بأنها بالفعل أحبته، وكأنها طول عمرها

تبحث عنه، بقيت أرملة طوال سنتين رافضة كل من تقدم لها، أو حام حولها، كانت تخشى خباثة الرجال كما كانت مرعوبة من رد فعل وحيدها رشدي، لن يتقبل بسهولة أن ينفرد رجل بأمه في حجرة نوم. لكنها اقتحمت كل المخاوف عرفته. وأنها معه المرأة الضعيفة التي اسمها فلّة، وهذا شعور لم يمر بها من قبل، فقط عليه.. على زوجها وحبيبها عليوة ألا يصطدم معها في عملها، وهي في حالة المعلمة فلّة. استمع لها عليوة زوجها، لكنه لم يستمع جيدًا.

في بداية السنة الثانية. وجد تلك السنة اللذيذة قد أتت له بأمرين، أولاهما مر وثانيهما حلو. المر أنه عرف جانبًا من جوانب عمل زوجته، تتعامل في السوق السوداء بعمق وبكثافة لم يكن يتخيلها، لا تتاجر في المواد الغذائية، بل في الأجهزة الكهربائية التي تنتجها مصانع القطاع العام، بكميات لا تكفي احتياجات الناس، فلّة لها اتفاقات خفية مع بعض المسئولين، الأجهزة الكهربائية تصل مخازنها بكميات، وهي تبيعها بفارق سعر كبير، يقسم ما بينها وبين الموظفين ومدرائهم الكبار. إنها عصابات متشعبة ليست سهلة المنال.

والحلو أن فلّة أنجبت له ابنته الوحيدة، أطلق عليها اسم أزهار. تألم من المر الصادم وحاول نسيانه، فهو يحب فلّة حبًا جمًا، لم يشعر بالسعادة كما يشعرها الآن معها. يعيش في عيشة طرية عطرية. فرح بالحلو الذي أتاه. فرح برضيعته فرحًا طاغيًا، وحاول نسيان المر بحلاوتها، يكتم غضبات تهيج بداخله حتى لا تصل الأمور معها لحد ناري، ويشعر بفلة تفعل نفس الأمر، فهو يريدها معه وهي تريده

معها. أزهار صارت نغمًا يشجي الزوربا ويبعد عنه غم ما اكتشفه من سوء يؤلمه.

في العام الحلو دللته زوجته فلّة. بيتها الواسع وكله لها وحدها هي وابنها رشدي. تابع للبيت حظيرة خلفية بها حصانها وعربتها الكارتة الجميلة. كل صباح يخرجان من البيت فتكون العربة جاهزة أمام البيت، والحوذي يجلس جلسته مستعدًا. تصبح عليه المعلمة فيرد التحية بوقار. لم تعد هي من تجلس أولاً، قدمته عليها، وأما إذا كان رشدي معهما، فعليوة ثم رشدي ثم هي. تنطلق العربة بالحصان القوي لتتخطى شوارع وتصل لورشة النجارة. تهبط المعلمة أولاً وتدخل ورشة النجارة. لا تتجه لمكتبها، بل تدور في الورشة تتابع العمل وتتأكد من تواجد الكل، وأن الكل منشغل تمامًا بعمله. لا يهمها هبو نشر الخشب ولا صوت المناشير. تناقش العمل مع زوجها، والكل يعلم أن زوجها لا يفقه شيئًا في العمل، فهي تعطي زوجها قيمة وسط المعلمين وصبيانهم. عليوة يحرك رأسه وكأنه يفهم ما يقال، وهو لا يفهمه والمعلمة تفهم أنه لم ولن يفهم العمل في الورشة.

كل يوم جمعه لهما فسحة، غالبًا رشدي يرفض مرافقتهما، فهو لم يسترح مع زوج أمه بعد. بالعربة الكارِتّة تفسحا على كورنيش البحر كثيرًا. المكان الذي أحبه عليوة هو القريب من قصر رأس التين، والذي أمام جامع أبو العباس. انفردا ببعضهما في المسافة الفاصلة بين القلعة والبحر، أصرت أن تقبله فوافق بعد ممانعة، ثم عرف أن في نفس هذا المكان، نالت فلّة أول قبلة من صبي كان يكبرها بعامين.

في سهرة تلك الليلة حكت له عن طفولتها ومراهقتها.

فرح يهم المعلمة فلّة، صبي عندها سيتزوج. الفرح بسيط والناس بسطاء. الحي بالقرب من نفس المنطقة التي صورت فيه مشاهد فيلم (أبو أحمد). وعلى بعد خطوات دكان الراقص المبدع حلال عليه. من قبل الوصول حين علم عليوة الزوربا بمكان حفل العرس، طلب طلبات من فلّة فنفذته له. أتوا بنفس المطرب الشيخ أمين، فجاء مفعومًا بالثقة والدلال بنفسه وبأناقته. الرجال صفوف على الكراسي. في الصف الأول كبار الحي سنًا، وكبار الحي مقامًا. الكثيرون حاسرو الرؤوس، والبعض متعمم بعمامات خفيفة، والبعض يرتدي الطربوش، لكن عددًا على رؤوسهم القبعة الخاصة بالصيادين، وأيضًا القميص المغلق وبرقبة صاعدة تحيط بالعنق، والسروال أبو ليّة، والحذاء الخفيف اللين. وهذا ملبس أهل إسكندرية من سنوات بعيدة مضت. وتكاد معالمها تنتهي. عليوة الزوربا كان يرتدي جلبابًا وتحته هذا الملبس السكندري بلون أسود، وحزام قماش بني وعلى رأسه عمامة خفيفة، تمامًا مثلما ظهر الراقص حلال عليه في الفيلم. بين المطرب والتخت المرافق، وبين الحضور مساحة الرقص. الغريب أن الراقص الفنان حلال عليه متغيب!

المعلمة فلة من أقرب منزل لمكان الحفل، مع صديقتين تطل من شباك مشربية في الدور الأول. بقية النسوة والبنات يطللن من الشبابيك ومن على الأسطح الواطئة. غنى الشيخ أمين بجلبابه البلدي وطربوشه الأحمر واللاسة البيضاء الرقيقة على كتفه. بداية غنى موالـه الشهير وهو يصفق في مزاج عالٍ، وسنته الذهبية تلمع..

ياااليل..

مَسيكو بالخير يا ورد على فلّة.

هنا وقف عليوة وهو بين صف الضيوف الأول وصاح..

-أيووه يا شيخ أمين يا حلو، أعد الكلام يا أبو المفاهيم أعد.

ضحك الحضور فالمعلمة فلّة أشهر من نار على جبل كوم الشقافة السكندري الشهير. بحثت الأنظار عن المعلمة فلّة حتى وجدوها ووجهها صبغته حمرة الخجل، لكنها سعيدة بما فعله زوجها حبيبها عليوة. ومزأطة بكل هذا الاهتمام العالي. واستمر الشيخ أمين يغني وعليوة يقف وسط الساحة يتمايل مع معاني كلمات الشيخ أمين، والجميع يبتسمون رضاء من كل هذا الحب، والبعض يبتسم كرهًا، فقد كانوا يتمنون الاستحواذ على المعلمة فلّة، حتى جاءهم هذا القاهري الغريب فخطفها منهم..

مَسيكو بالخير يا ورد على فلّة.

ياتمر حنّة يا زهرة من الجنة.

ياعود قرنفل رحلنا من منازلنا

يصيح عليوة وهو ينظر لفلّة الضاحكة..

-آه والله. رحلنا من بولاق الفرنساوي عشان الحبايب. حبايب إسكندرية.

انتهى الشيخ أمين من وصلته الغنائية الأولى. أشار عليوة للفرقة الموسيقية المصاحبة، فبدأت تعزف لحنًا سريعًا. وإذا بعليوة يفاجئ

الحضور ويفعل تمامًا ما فعله الراقص حلال عليه في فيلم أبو أحمد. يسحب اللاسة من كتف الشيخ أمين. ومع توالي العزف السريع يرقص عليوة وهو يتلاعب باللاسة الناعمة في الهواء، فكأن عاصفة تطيح بها كما تطيح بقلب وجسد الراقص. تتطور الرقصة فيتحزم عليوة الزوربا باللاسة ويدخل عليوة الزوربا في الرقصة الأنيقة وبها دلال الراقص برشاقته، وتوافق تلاعب ذراعيه مع خطوات ساقيه، ثم التطور الثالث، يشير عليوة الزوربا لجانب من الجلوس فيشق رشدي صفين ويقترب من عليوة الزوربا ويناوله المطواة. عليوة الزوربا بالمطواة ويمثل أنه في معركة بالمطاوي مع الخصوم الأقوياء، لكنه أقوى منهم. يرقص ببراعة تقارب براعة الراقص الأساسي. وإذا بمن يشق الصفوف ويثب في مساحة الرقص ويسحب اللاسة من كتف عليوة متحديًا! إنه الراقص الأساسي حلال عليه. التصفيق والتهليل من الجمهور السعيد بالمفاجأة. كان هذا ترتيب حلال عليه وعليوة الزوربا. رقصا في المعركة التمثيلية. وإذا كان عليوة راقصًا ومنازلاً حريفًا، قوي الجسد، فإن الأستاذ الأمهر، والمنازل الأخطر والأرشق وكعبه يعلو على تلميذه عليوة. رجلان رجولة. حلال عليه بشنب وعلوية بدون شنب. حلال عليه بأسنان لامعة وعليوة بخد أيسر مشوه.

تشجيع المعازيم كان حارًا فأبدع الشيخ أمين غناء مع إبداع الراقصين اللذين يستكملان المعركة الراقصة باستخدام الكراسي، ثم ينتصر حلال عليه بعد مشقة. وعليوة الزوربا يمثل الإصابة وبداية السقوط أرضًا، فيسرع إليه حلال عليه ويحتضنه سعيدًا.

كانت سعادة فلّة أزيد من سعادة عليوة الزوربا بما قدمه لها من تحية حب جميلة، وأيضًا من مهارته في الرقص، وبيانه للناس أنه ليس بالرجل الهين، وليس مجرد رجل تافه، وظيفته أن يكون زوج الست كما يطلقون عليه خفية. والأكثر منهما سعادة هو رشدي، الذي أعجب برقص عليوة الزوربا. فهذا الراقص البارع الذي انتزع إعجاب الجميع، هو زوج أمه. زوج أمه الذي رقص أمام حلال عليه! والذي بعد الرقصة احتضنه حلال عليه وأقبل عليه وعلى حلال عليه الجميع مهنئين فخورين!

بعد رفض عدة مرات، وافق عليوة أن يستحما في البحر. أتى معهما رشدي راضيًا. شمسية ثبتها لهم عامل الشاطئ. الحوذي أتى لهم بأكياس تحوي ما سيحتاجونه من طعام وشراب. الشاطئ الرملي عريض. المصطافون أغلبهم من أبناء المنطقة. كلهم من الطبقة البسيطة. الرجال يرتدون لباس بحر يصل لفوق الركبتين، أما الفتيات والسيدات فهن بملابس عادية يستخدمنها للسباحة البسيطة بالقرب من الشاطئ. فلّة في بهجة وابنها في رضا، فقد بدأ يتعود على تواجد زوج أمه، القَلِق هو عليوة، ينتظر مما يخشاه، وحين حدث بين عدم رضاه. خلعت فلّة ملبسها الخارجي وبقيت بجلباب بسيط رقيق يشف عن ستيانها، عاري الذراعين وفتحة الصدر واسعة. اعترض لكن فلّة ضحكت ضحكًا باستمتاع. عليوة يغير عليها من نظرات الرجال والشباب من حولهم. تقنعه بأن كل شمسية بها امرأة ترتدي مثلما ترتديه هي. أدخلا رشدي حَكَمًا، فكان مع أمه، فهو شاهدها مرارًا وتكرارًا هكذا.

قام ثلاثتهم وهبطوا في المياه. ضحكوا ولعبوا وقلق الغيرة لم يبرح صدر عليوة. وهم يخرجون من المياه، الغضب والضيق سيطرا على عليوة. زوجته الجميلة جلبابها الخفيف الرقيق، التصق بجسدها فبانت كل تفاصيل هذا الجسد الثائر. تجري فلّة لتصل تحت الشمسة وهما خلفها. تضحك مع رشدي وعليوة عابس فزاد ضحك فلّة منه. تناولا سندتشات الطعام وشربا. بدأ عليوة يهدأ حتى أبدت فلّة رغبتها في السباحة مرة ثانية. اعترض عليوة لكنها قامت وأسرعت ورشدي معها وهبطا في المياه يلعبان. لم يلحق بهما عليوة. عادا وعادت لتشاغبه وتعلنه بأنه يغار عليها غيرة فوق المعقول. تأتي بالرمال من تحتهم وتضعها على كتفي عليوة.

رشدي شاب حيوي. يسرع وحده ليسبح وينافس من هم مثله. فلّة تتابعه فرحة به. قالت لعليوة..

-عارف ليه سميت ابني باسم رشدي؟

-ليه؟

-عشان كنت بحب، بعشق رشدي أباظة.

عليوة صامت في عدم رضاء. استمرت فلّة..

-البنات الهبل قال إيه هايمين في عبد الحليم حافظ! واحدة عمّالة تنوّح وتغني تخونوه. والتانية بتوحوح يا كبدي وتقول.. ظلموه. والتالتة مزأططة عشان الولد المفعوص بتاعها بص لها بصة غرام، تترقص وتغني.. أول مرة تحب يا قلبي! ورابعة بقت أمينة رزق، هاها.

تنشف دمعتها وهي بتغني بتلوموني ليه؟ بنلوموكي عشان عبيطة يا هبلة منك لها.

عليوة ينظر بعيدًا وعدم الرضاء مستمر. هي لاحظت ذلك فاستغرقت في الموضوع..

-إنما أنا. لا. مش زي بقيت البنات المواكيس. حبيت وعشقت رشدي أباظة. منظر ومظهر وقوة ورجولة. يحضن الست من هنا، تدوب في أحضانه زي الجيلاتي اللي اتحط تحت الشمس! آه والله. أنا بقى كان نفسي ناخد منه حضن ولا اتنين ولا..

-اسكتي ولا عايزاني أسب لك؟

-هاها. إنت بتغير قوي يا جوزي يا بعلي.

-وللعلم، شغلك في القاهرة يتمنع.

-ليه بقى؟

-كده.

-هاها. بس أنا عارفة ليه.

..-

-بتغير من المعلم اللي عزمني على السيما، وكان عايز يرافقني أو يتجوزني.

..-

-بس عشان خاطرك يا حبيب قلبي. حنقفّل شغلي هناك.

-دا أنا بغيظك يا موكوس. آه أنا حبيت وعشقت رشدي أباظة، لكن لما كنت بت هابلة هفتانة. ثم يعني يروح جمبك فين رشدي أباظة ده؟ دا إنت عشر أباظات في بعض يا جدع.

أتى رشدي وتناول طعامًا سريعًا. فجأة قام عليوة وطلب من رشدي أن يذهب معه للمياه رجل مع رجل بدون النساء. أسرعا وفلّة تضحك سعيدة ببداية تعمق الصداقة بين أحب الناس إليها.

عادا وكل منهما يخفي كفيه خلف ظهره، ثم بالطين الذي كانا يخفيانه لخبطا جسد فلّة، وكان نهارًا جميلاً لهم أعقبته ليلة بالغة المتعة لهم جميعًا. الحبيبان في لهفة روح ونفس وجسد، وفرحة أم بتفاهم ابنها مع زوجها، أما الابن رشدي فهو سعيد باكتشافه لطيبة زوج أمه، وإمكانية الصداقة معه.

ثم أتى العام المر. كبس على صدر الزوربا واقعه غير المريح. رغم فيضان الحب الذي انطلق من قلبه تجاه ابنته. ورغم أن عشقه لفلّة يستفحل أكثر وأكثر كل صباحية ربنا، ورغم كل تلك المتع التي يجدها مع امرأة عمره، وحجرة النوم ذات الشباك والبلكونة والستائر البيضاء الرقيقة، وتعوده على بحبوحة العيش في شقة رحبة، وعودته ليرتدي الجلابيب الجديدة القشيبة، مثلما كان أيام عمله فتوة. بل الآن المال الذي يكسبه مقابل عمله كمشرف على ورشة النجارة، يزيد كثيرًا على مكاسبه أيام الفتونة، إلا أنه لم يستطع الصمود أمام ضغط ضميره.

خسارته لنفسه تؤلمه، زلزلة اعتزازه بنفسه تقلب عليه المواجع. صارح حبيبته زوجته، بأن عليها هجر المتاجرة في السوق السوداء. لم يقتنع بحجتها بأنها بعيدة عن أطعمه الغلابة. عنده إنها سوق سوداء للسرقة في كل تنويعاتها.

وهذا مطلب أساسي، وتناسى المطلب الثاني.. ألا تخدش هيبته كرجل، فلا تعامله في الورشة على أنه تابع لها. رضيت بعدم تواجده في الورشة، وكل صباح يذهب إلى حيث يريد. ليضيع وقته لوقت الغذاء. يذهب للبحر، يذهب لمقاهي محطة الرمل، يدخل أرقى السينمات وليشاهد أفلامه الأجنبية التي يحبها، لم يسترح. بقي في عدم رضاء.. ذكرته فلّة بما قالته له من قبل أكثر من مرة، إنها مكونة من شخصيتين.. المرأة الزوجة فلّة. المرأة التي تحبه وتعشقه، وفلّة المعلمة التي تأبى أن يتصدى لها إنس أو جن. حينها سيحدث صدام قاسٍ.

تحبه بعمق وترجو بقاءه معها طوال العمر. من أجلها تريده، ومن أجل رضيعتهما تريده، وأيضًا تريده من أجل ابنها، ابنها الذي يفتقد أباه ولم يقتنع سابقًا بحاجة أمه للزواج، بدأ ينسى ضيقه كلما اختلى بها الزوربا في حجرتها. ثم بدأ يتعود على تواجد عليوة كزوج لأمه، سيتألم رشدي إن طُلّقت من عليوة وتزوجت برجل ثالث. رشدي بعد مولد أخته أزهار، صار رشدي آخر، ترك كآبته التي لازمته بعد موت أبيه، ترك غضبه من تواجد عليوة، ثم بدأ يفكك عقده ثم تحول للمرح بعد وصول إزهار. لذا فلّة لاطفت عليوة الزوربا ليهدأ ويرضى بما هو واقع يعيشان فيه، ويتناسى عملها في السوق السوداء.

ترجته.. توسلت إليه. رغمًا عن أنفه لم يستطع الاستجابة لتوسلاتها الصادقة، لا يستطيع تقبل أن كل عمله أنه زوج الست. تصرف عليه مأكلاً وملبسًا وإقامة. كما تصرف على ابنتهما، وبعض تلك المصاريف تأتي من عملها في سرقة قوت الناس الغلابة.

وفي حوار سريع غاضب بينهما، كلاهما ترك الغضب يصل للنارية. نعتته فلّة بأنه فعلاً كما حذروها من قبل، مجرد فقري. أطبق على عنقها بكلاباته ولم يتركها حتى بدأت تحشرج. بكى بعد تمالكه لنفسه، وهي بقيت تلعنه دقائق. أسرع عليوة الزوربا إلى الشرفة وارتمى أرضًا مكورًا نفسه على بعضه. يشنج ويبكي مغتاظًا من نفسه، كاد يقتل حبيبته. أتته فلّة وارتمت عليه تحتضنه تبكي وفزعت وهي تراه يعض بفكيه على كلوة يمناه في غل وانتقام. جلست على مقعدتها وأراحت رأسه على فخذها. تربت على كف يده المعضوضة. بقيا في صمت ثم عادا للدموع، هي تربت على رأسه وخده وعنقه، وهو يربت على فخذها معتذرًا.

بعدما كاد يقتلها، هدئا أيامًا وبقيا في حالة رومانسية، ثم عادا للشجار. صعب صعب صعب بقاؤهما معًا. صعب رغم الحب ورغم احتياج كل منهما للآخر. عليوة الزوربا نفسه امتلأت بملح الضيق. فتشاجرا أكثر من مرة، وعلا صوتاهما في الشقة فأشفق ابنها عليها، أما ابنتهما فمازالت رضيعة لا تمتلك سوى الفزع من الصياح العالي، فتبكي بانفعال فيصمت والداها مرغمين.

لكن المعارك بينهما استمرت ولا يلوح لها شاطئ تتوقف عنده. فكما لم يعد عليوة الزوربا يتحمل حاله، لم تعد المعلمة فلّة تتحمل

حالها. شجارهما يزداد شراسة ولا يرحم أحدهما الآخر بأقسى الكلمات.

في مناقشة ساخنة اشتعلت للغاية. أهان عملها في السوق السوداء، صمم أن السوق السوداء سرقة ونهب من الناس الغلابة، وإنه عمل خسيس، فعايرته بعمله قوادًا في سينما علي بابا. سبها فسبته صفعها بصقت عليه، فثارت براكينه التي لم يستطع التحكم فيها، وهو يضربها سبته ثم أخذت ثانية واحدة فرصة فبصقت في وجهه. مسح وجهه وأنهال عليها ضربًا بأقسى مما بدأ. كسر لها ضلعين وشج جانبًا من رأسها، كما مزق شفتيها بلكمة وكسر لها نابًا. النتيجة هي إلى المستشفى أيامًا، وهو إلى السجن شهورًا.

المعلمة فلّة كما أمتعته ودللته، فهي التي كسرته ودشدشته ونثرته هباء منثورًا، هذا رغم الحب الذي تكنه له ورغم الحب الذي يكنه لها. عاد إلى القاهرة وغاب عن الإسكندرية سنين، سنون وفي قلبه حسرة لغيابه عن طفلته أزهار، لكن ما بيده حيلة، فلن تسمح له فلّة بالاقتراب منها، لقد هددته حين أرسل إليها خطابًا يطلب موافقتها على حضوره ولقياه لابنته.

أجابت فلّة بأن الطفلّة لا تعترف به أبًا، تعرف تمامًا أنه هجرها وهي رضيعة. رغم التحذير سافر للإسكندرية ثلاث مرات، ليرى ابنته، لكن طليقته التي تزوجت للمرة الثالثة من معلم كبير، والتي صارت مشوهة، وإن كان التشوه لن يطغي على جمالها وجاذبيتها، بقدر ما بدأ يطغي عليها عامل الزمن، من سمنة وتجاعيد وتعب نفسيتها. طليقته الموتورة منه والمشتاقة له معًا، منعته من رؤية

طفلته، وأبلغته بصراحة أنها شحنت ابنته الطفلّة ضده، فصارت الفتاة تكرهه ولا تطيق رؤيته، تفعل هذه الفعلة القاسية ضد رغبة قلبها الذي يشتاق له، لعليوة الزوربا، يشتاق لعليوة الزوربا حتى بعد زواجها الثالث. في المرات الثلاث لم يحاول عليوة الذهاب إلى بيت فلّة، ويلاقي ابنته غصبًا عن الجميع، لكن قلبه رفض أن يصدم طفلته بأن يحتضنها رغمًا عنها، أو يجعلها تشاهد معارك شرسة بين أبويها. يقابل فلّة في ورشة النجارة فتتعالى عليه ظاهريًا، وقلبها يهفو له ولأيامه التي لم يعوضها عنها زوجها الثالث. رشدي ابنها يراقب عليوة من بعيد، ولم يحاول الاقتراب منه. يعود عليوة الأب لبولاق الفرنساوي مكسورًا متألمًا.

المعلمة فلّة أوقفت تعاملها مع تجار القاهرة تمامًا.

سنوات مرت، ابنته صارت في عمر الرابعة عشرة. عليوة لم يعد يستطيع الصبر، لم يعد قادرًا على كبت اشتياقه الهادر لرؤية ابنته واحتضانها، سيفعل وليكن ما يكون. ذهب للإسكندرية. يرتدي أشيك ملابسه ووضع على رأسه طاقية زاهية لتزيد من وسامته، وفي نفس الوقت تخبئ شعيرات بيضاء تسللت. داخل ورشة نجارتها، فلّة في كامل زينتها.. صبغت شعرها حتى تخفي بياض جانب منه. تزويق وجهها بالألوان وشفتيها بالأحمر تزويق فاقع، ملاءتها مضمومة وملقاة على كتفها. تسير هنا وهناك وسط هدير مناشير الكهرباء التي تقطع وتشكّل الأخشاب. كالعادة تدير المعلمة فلّة وكلامها للعاملين لديها كلام حاسم آمر. تلين كثيرًا وهي تساوم الزبائن، ومن يطيل في المساومة، تزيحه بعيدًا ليقوم العمال بطرده. لم تستنزف الأيام منها

الكثير من جاذبيتها، فقط من بعيد يلاحظ المتابع شعرها المصبوغ ثم وزنها الذي زاد بوضوح، بدليل ترهل بطنها، ومن يقترب منها يلاحظ آثار خياطة جروح حول فمها، وحين ينفتح فمها، يلاحظ نابها المكسور، هي علامات ضرب عليوة لها.

تتجه فلّة لركن من ورشتها. تمشي تهز كتفيها في تحدٍ ودلال، ومؤخرتها التي ثقلت تتلاعب في ثقة وجلال. شاهدته فتوقفت من المفاجأة. أشارت لصبي وهمست في أذنه فأسرع لركن في الورشة، وأشارت لشاب من العاملين، همست في أذنه فأسرع هذا خارجًا، توقع عليوة أنها أرسلته لجلب عدد من رجالها. الصبي عاد وخلفه شاب قوي ذو وجه متوحش الملامح دموي، رغم أن المناخ صيفي، فوحشي الملامح يرتدي معطفًا فوق جلبابه. أتى ووقف خلف معلمته فلّة ولم يبارح مكانه. واضح أنه البودي جارد.

اتجهت فلّة ناحية عليوة ووقفت على بعد خطوات منه. تتمعن فيه، مازال يمتلك جسدًا قويًا رشيقًا، ومازالت تعبيرات وجهه تضخ عنفوانًا. جاذبيته الرجولية لها، مازلت قوية. وتشوه وجنته اليسرى تشتاق لتقبيله. أما ملابسه فهي متواضعة رغم مظهرها الجيد. ابتسمت له ابتسامة استهانة وقالت..

-همّة بيطلاعولنا إمتى؟!

لم تظهر عليه أي ردود فعل، فقط تعبيرات وجهه فيها الإصرار، وهي تعلم ماذا يريد. أتى أحد العمال لديها بمقعد بلاستيكي مريح. وضعت على مسنده ملاءتها. جلست ووضعت ساقًا على

ساق فبان شبشبها المذهب المعلق في قدميها. طلبت شيشتها. نظرت له في تحد..

-هو حضرتك لسّة عايش؟!

عليوة اقترب منها، فزام البودي جارد محذرًا، لم يهتم به عليوة، طالب بكل هدوء أن ير ابنته. أصدرت فلّة صوتًا نسائيًا يعبر عن التعجب والترفع معًا. حوار استفزازي منها مستمر، وعليوة يجيب في هدوء الأسد الرابض الذي يخيف رغم هدوئه الظاهري. أشارت فأتوا له بمقعد متهالك ليجلس عليه على بعد خطوات منها. قالت في حزم..

-حَبْعَتْ أجيبها، لكن دي أخر مرة أشوف فيها وشّك. لو البت رفضتك ومسحت بيك الأرض، تغور ومترجعش إسكندرية كلها تاني، فاهم؟

طلبت له كوب شاي. ثم أتت بصبي وطلبت منه أن ينادي البت منجة. تعجب عليوة، فابنته كان اسمها أزهار حين تركها رضيعة. ترك كوب الشاي أرضًا. بقي صامتًا في رهبة انتظار. الأم فلّة تدخن الشيشة في هدوء لتظهر لعليوة أنها مطمئنة لما سيحدث، خاصة بعدما حضر أربعة رجال، ووقفوا على جانبها ينتظرون، فأصبح مجموع الحراس خمسة. ورغم الخمسة فالمعلمة فلّة مضطربة، ليس خوفًا من عليوة، بل اشتياقًا له.

عاد الصبي للورشة وخلفه فتاة. قلبه خفق بقوة فهي ابنته لا كلام. نحيفة ملفوفة في ملاءة بلدي سوداء. شعرها ناعم مهوش

يتراقص مع كل خطوة تتراقص بها الفتاة. وجهها جميل جامع ما بين الطفولة وبدايات الأنوثة، في فمها لبانه تمضغها في استهتار. شبشب مذهب في قدمها يطرقع مع كل خطوة. وقفت أمام أمها. تشبهها كثيرًا. عليوة يتمعن فيها، يداها وعنقها الرقيق وأعلى صدرها شبه الممسوح ظاهران. نضجت أكثر مما كان ينتظر. الفتاة نظرت إليه في استغراب. أمها قالت لها..

-بت يا منجة. الراجل اللي المتلقح ده وجاي يرازينا! بيقول إيه يا حبّة عيني.. بيقول إنه أبوكي.

ابنته تنظر له وتتمعن. توقفت عن مضغ لبانتها. تقدمت خطوات وتركت ملاءتها تتهدل ثم تتماسك في خصرها النحيف. بدأت ابتسامة طفلّة تتصاعد في محياها إلا أن صرخة أمها فيها بصوت مسموع..

-بت يا منجة. دا الشخس اللي خلفك وسابك وعندك سنتين بس. وطنشك. تكونيش في نظرة معزة ملهاش قيمة.

أفاقت ابنته من لهفتها لأبيها، عادت لتكون منجة ابنة فلّة. أطلقت صوت احتجاج نسائي شديد وهي تنظر له في اشمئزاز. ترك عليوة كوب الشاي ووقف آملاً أن تقترب من ابنته ليحتضنها الحضن الذي يحلم به منذ سنوات. لكن ابنته عادت تلوك لبانتها في استهتار وهي تتقصع في وقفتها متحدية. حركات أمها تمامًا. تنظر في تحد لمن يقول إنه أبوها. تؤدي بجسدها فاصل اهتزازات رافضة له وهي تتلاعب بملاءتها، وتحرك شفتيها بعلامات الاشمئزاز. ضحكت المعلمة فلّة فسعلت وهي تدخن الشيشة. خلعت ابنته ملاءتها.

جسدها نحيف وإن كان ينبئ بجمال وصوله قريب. بدأت الكلام وصوتها يعلو في تناغم. أسمعت عليوة موشح ردح ومسخرة سكندري نقاوة يا خيار. تعيره بهروبه وتركها رضيعة لتربيها أمها. بكف شمالها وأصابعها تصنع نصف دائرة فوق حاجبها اليمين صاحت:

-وشووبش يا أبوها شووبش.

مستمرة في إلقاء الموشح الغجري الذي دفع أمها وكل من يتابعها للضحك، ضحك شماتة في الأب عليوة المذهول. زبائن أتوا وتجمعوا ليتابعوا المهزلة. البودي جارد قبيح الملامح لا يتحرك من خلف سيدته ولا يضحك، فقط يتابع في برود غبي.

آلمته ابنته وهو يقف مذهولاً، لا يعرف ماذا يفعل؟ المفاجأة أن منجة توقفت عن مضغ لبانتها وأخذت خطوات مقتربة منه. أذناها لم تستمعا لتحذيرات أمها. ألقت بنفسها في حضن أبيها الذي ضمها له في قوة وإصرار، تبكي وهي تعيره بتركها، وهو قطرات من دموعه بللت خديه السليم والمعطوب.

ولم تستسلم فلّة التي تحاول استخلاص منجة من حضن أبيها. تسبه وحرضت رجالها لضربه، رغم أن محاولتها جذب ابنتها منه، تغيرت وصارت تحتضن ابنتها وأصابعها وصلت لساعدي عليوة، وتشبثت به حتى انغرزت أظافرها في لحمه.

ولما أحس بتوالي ضربات على ظهره، ثم ضربة على أم رأسه، طاقيته خففت من تأثيرها. ترك حضن ابنته والتفت فرأى ضاربه هو البودي جارد القبيح. المعركة هي الوبال على هذا البودي جارد

الغشيم. ضربه عليوة الزوربا ضربًا مبرحًا وتوصى بوجهه فشلفطه تمامًا.

الرجال الأربعة كانوا قد أذعنوا لأمر منجة التي صرخت فيهم ألا يعتدوا على أبيها. الأربعة وقفوا متوترين مستعدين لتنفيذ أمر معلمتهم للدخول في المعركة. انتهى عليوة الزوربا من البودي جارد. وقف ناظرًا لفلّة في تهديد. تقدم خطوات منها، فأسرعت ابنته لترتمي في حضن أبيها، تمنعه من الاقتراب من أمها.

حملوا البودي جارد ليعالجوه. انفرد الثلاثة.. عليوة وفلّة ومنجة ببعضهم. يجلسون على شكل مثلث. أكواب شاي لثلاثتهم. حوار طيب بين عليوة وابنته، ومتابعة من فلّة لهما وهي راضية، أشارت لابنها رشد المراقب من بعيد، أشارت ليأتي معهم، فهز رأسه رافضًا وبقى بعيدًا. ذهب إليه عليوة وتبعته فلّة ثم منجة. قابل رشدي مصافحة عليوة في رضاء، فأخذه عليوة بالأحضان، لقد نما رشدي وصار شابًا فتيًا. وهما الثلاثة عائدون لمقاعدهم، أشارت الأم خفية لابنتها أن تسبقهما. ولما انفردت به توقفت فتوقف. نظرت إليه نظرة زلزلت قلبه وهيجت أشجانه. سريعًا قالت بصوت واطئ في إصرار..

-ارجع لي يا عليوة. جوزي التالت واحد من الأربعة الهُبل اللي كانوا بيتفرجوا علينا. ارجع لي تاني دا أنا لسة بحبك.

-مقدرش. مقدرش وأنا بحبك حب محستوش قبل كده ولا حنحسه بعد كده، لكن يا ست الناس.. مستعدة تسيبي شغل السوق السودا؟

-مقدرش يا عليوة.

-يبقى حنرجع للعراك تاني. يا فلّة وإنت غالية عليّ. سبق وكنت حقتلك مرتين. خايف المرة التالتة أقتل حبيبة عمري.

المعلمة فلّة تبكي! من بعيد العاملون يتابعون عملهم وما يجري لمعلمتهم، والزبائن نفس الشيء، وكلهم فوجئوا ببكاء المرأة الطاغية.

عليوة وفلّة اتفقا أنهما أم وأب لفتاة يرجوان لها الخير. فليأتي عليوة كل فترة ليجلس مع ابنته كما يحلو له.

(((((())))))

10-عودة لعليوة الزوربا

عاد عليوة الزوربا لعرينه. عاد لبولاق الفرنساوي ليبقى بدون عمل رغم تشجيع ولوم أخته وغيرها. عاد بملامح محايدة، لا حسرة يبديها ولا غضب ولا أي شيء، وكأن هاتين السنتين، مجرد ليل نامه وصحى منه وانتهى. عاد محاولاً نسيانه ما كانت في تغريبته الثانية للإسكندرية. عاد ليشارك أصحاب الأفراح في أفراحهم ويكون الراقص الأول الذي يزيد الفرح فرحة، ويشارك أصحاب العزاء في فقيدهم، فيزيد من وقار المشهد. يشارك كما كان يفعل منذ سنوات، وكأنه يأمل في استعادة زمن كان فيه أكثر خفّة وأقل ضيقًا. وكل هذا كان تمثيلاً مبينًا ليتوازن مع نفسه، عليوة الزوربا مُتْعَب منهك في دواخله.

لا يحكي حكايته إلا نادرًا، ونادرًا لا تأتي إلا حين يصعد به الوجد وهو بين أصدقاء مقربين، فيستعين بكأس خمر خفيفة تساعده في الاندماج في رقصة الزوربا، فيحكي بالمختصر الغامض، بحيث يتوه من يسمعه، ولا يعرف لحكايته مع فلّة رأسًا من ذيل.

أنا ونصّار سمعنا أكثر من مرة حكايته مع فلّة السكندرية، حكي لنا وكأنه يحكي أحاجي! يقصد بالطبع لخبطتنا واللعب بنا. وضوحه فقط حين يبين كم اشتاق لابنته، وحين يكرر حلمه بأن يمتلك شقة رحبة مثل شقة فلّة التي عاش فيها معها. شقة تحوي خمس غرف

وحمامين! لكننا نجحنا في ربط الشذرات والشظايا والأشلاء المتناثرة على مساحات واسعة من التيه، ففهمنا الخبايا التي يخبئها عليوة الزوربا، وذات ليله كنا أنا ونصّار وحدنا منفردان به في حجرته، نحن اللذان حكينا حكايته له وبكل خباياها. عليوة ذهل وكاد يفيق من الخمر التي شربها، نظر إلينا وقال..

-أصل أنا ابن وسخة إني بحكي أسراري وغرامياتي لعيال صيص ولاد ستين وسخة زيكم. ياللا قوموا وغوروا من هنا وسيبوا إزازة الزفت المضروبة اللي إانتم جايبنها. إسفخس.

في مغربية يوم من سنوات، كان يشرب الشاي وحده وعفاريت الشر تتلاعب في ملامحه. وإذا به يقف ويصيح معلنًا قراره الخطير..

-ينعل ديك أم الشغل واللي يشتغلوه. مش شغّال يا أولاد الوسخة، واللي مش عاجبه إن شاالله ماعجب أمه.

هَجر العمل. يسهر للصباح. صار ليله نهاره ونهاره ليله، صار فقريًا تمامًا. وحين يستغرق في الحزن والشوق لابنته ولمن أحبها حب عمره، يؤكد لمن حوله أنه يريد العمل، لكنه لا يستطيع! يسألونه.. لم؟ يقول..

-مش عارف. في حتة حديدة ساقعة جوة صدري.

يشاكسه مشاكس..

-بسبب المعلمة الإسكندرانية؟!

-ينعل ديك أبوك على ديك أبوها.

عرفته أنا وصادقته بعد أن قرر أن يكون عواطلي. ثم أتته حالة طفشان من شارعه والشوارع التي بجانبه. هجر المكان شهران كاملان. هجر مقهى سلامة والرصيف الذي هو معلم من معالمه، انطلق ليجلس في مقهى جديد أطلق عليه اسم يوليو، والمقهى في شارع 26 يوليو الذي يفصل بين بولاق الفرنساوي وبولاق ماسبيرو. ثم عاد لمقهى سلامة وليس بالسلامة! بان ووضح أن عليوة عاد من إسكندرية وشيء ما انكسر جوّاه. حين يجدنا أنا ونصّار يسهر معنا ويسألنا عن أحوالنا في الجيش، ومتى القتال؟ ولما دخلنا حرب الاستنزاف، صار يسألنا عن التطورات، وليطمئن ليس علينا فقط، بل ليطمئن عن كل زملائنا. لنخفف من قلقه على الجنود عامة، سمع منا باستغراب كيف أننا رغم الشهداء الذين يسقطون منا، نختطف أوقاتًا لنضحك معا ونطلق النكات على بعضنا، ثم ننام حاملين ضحكاتنا معنا لنخفف من آلامنا الزاعقة الحارقة. يتعجب لكنه بعد ذلك استطاع أن يدرك أننا بالضحك نقاوم اليأس والاكتئاب، ففقد زميل قتال، يرج القلب ويوحش الصدر.

ذات سهرة في قهوة سلامة، إذا بحسين يظهر. هب الزوربا واقفًا واحتضنه تمامًا مثلما يحتضنني أنا ونصّار. حسين صار يزاحمنا في حبنا للزوربا وحب الزوربا لنا. في هذه الليلة دعانا الزوربا لسهرة في حجرته على شرف حسين، وبالطبع السهرة على حساب الحاضرين.

كانت تلك السهرة في حجرة الزوربا، هي الأولى والأخيرة بالنسبة لحسين، استشهد بعدها بأشهر. إجازة سريعة لي أنا ونصّار. جئنا

للقهوة بائسين. اشتم عليوة الزوربا رائحة مناحة. اضطررنا لإبلاغه هو وبقية الأصدقاء باستشهاد حسين. بكينا جميعًا فيما عدا الزوربا، فقد صَمَتَ صَمْت أبي الهول. دقائق نشرب الشاي والقهوة في سكون، وإذا بالزوربا يصيح..

-حسين مات.

يقوم من بيننا في هبة مفاجئة فانقلبت المنضدة وسقطت هي وما عليها من أكواب الشاي. الزوربا لم ينتظر لنهدئه. يسير متدفقًا كفيل هائج. عاد لحجرته ليختبئ فيها. لحقنا به وطرقنا الباب. نسمع نشيجه. لم يفتح الباب. من أتتنا وأدخلتنا حجرتها لنبكي معها، كانت أخته.

ثم بدأنا كالعادة، نتعايش متناسين همومنا، يومًا بعد يوم وشهرًا بعد شهر. نأكل ونشرب ونعمل وننام منهكين. نضحك معًا ونتشاجر معًا، كل هذا وكأنها مسطحات ريم يسبح في بحيرة أسيانة.

وعليوة الزوربا بيننا هو منا ونحن منه، هو يتألم مدنيًا ونحن نتألم عسكريًا، يحمل همنا ونحمل همه، فهو ونحن واحد مصبوب.

أخته تحبه وتشفق عليه، هي أخته وأمه معًا. حين يصحو في المغرب من كل يوم، يطلب شاي الصباح. تأتي بالشاي بنفسها أو ترسله مع ابنتها الصغرى، فالابنة الكبرى تزوجت في فرح عظيم، أقامه لها خالها عليوة بعد أن اقترض مبالغ من أصدقائه واستكمل ما يحتاجه من معلم الخردة الذي كان يعمل عنده فتوة.

في الفرح الذي أضاءوا له الشارع بطولة، والذي حضره مطربون ومطربات وراقصة سبق وأن ظهرت ثلاث دقائق في فيلم سينمائي. أخت عليوة الزوربا لا تنس لشقيقها هذا الموقف الإنساني، فهو يحب ابنتيها بالزائد، لأنهما بنتا أخته العطوفة عليه، وأيضًا ليعوض اشتياقه لابنته السكندرية.

(((((())))))

11- عودة ثانية لبولاق الفرنساوي

إن كان زهدي العريض، رغم قوة جسده لم يُجند، والسبب باطن قدميه المسطحتين، فإن أخاه فايق بتاع البنات، قد تم تجنيده بعدما أنهى دراسته الجامعية. تبديلات عديدة تحدث سريعًا. حالاتنا النفسية في كتيبتنا الحربية، تتبدل مع كل شهيد يفارقنا، ومناخ جلساتنا في بولاق الفرنساوي تتغير مع غياب أحد من الأصدقاء، فكل منا له عطاؤه للمجموع أيًا كان هذا العطاء، وكأننا أوركسترا متنوع العازفين والآلات، غياب عازف معناه غياب روح لها مكانتها، وغياب آلته وافتقاد عطائه النغمي. جاء فايق في إجازة سريعة واختفى لشهور، ما طمأن أخاه زهدي العريض وبقية عائلته، خطاب جاءهم يقول إن ابنهم بخير، لكنه في تدريبات ستطول قليلاً.

ولماذا جيلنا يتحمل كل هذا الحزن الثقيل؟ لماذا نتحمل كل هذا الوجع؟

كنا زحام في المقهى. على الرصيف يجلس عليوة الزوربا ونحن أمامه تحت الرصيف، أنا ونصّار وعريض الكتفين. نستمع للزوربا ونحكي، لكن أنا ونصار منعنا الكلام عن الحرب. نريد التفريج عن نفسينا تلك الساعات التي نزلناها للفرنساوي. وإذا برجل قارب الستين من العمر، يقف بجانبنا. ملبسه بلدي بسيط نظيف. احترنا وهو ينظر إلينا والحزن يكسو وجهه. الزوربا قال له..

-اتفضل اقعد معانا ياعم الضيف. أهلاً وسهلاً بيك.

الرجل الحزين ركز نظره عليّ أنا ونصّار ثم الزوربا. ثم قال وهو ينظر إلينا واحدًا بعد الآخر..

-أنت أبو إسكندر الأسمر، وأنت نصّار وأنت عليوة الزوربا.

قال هذا وملامحه تنذر ببدايات بكاء. لم نتكلم. فقد العجوز تماسكه فوضع كفيه على وجهه وأخذ في البكاء. كان أول المتحركين هو الزوربا. أمسك بكتف الرجل يهدئه، لم يتوقف الرجل عن البكاء. احتضنه الزوربا. كلنا وقفنا في حيرة. قال الرجل وهو في نشج مؤلم..

-يا أخويا يا الزوربا أنا أبو الشهيد حسين.

صرخ الزوربا وترك المحزون وأخذ يلتف حول نفسه وهو وذراعاه تتطوحان هنا وهناك كالطير الذبيح. أنا ونصار قمنا واتجهنا للرجل الذي أخذنا بالحضن، ثم انضم إلينا الزوربا يحتضننا لننخرط في بكاء حارق. بكى كل من حولنا. كل زبائن القهوة ومن هم قريبون منا، السيدات والفتيات اللائي يجلسن على أعتاب بيوتهن. الشارع مدني عسكري موحد. الشارع يبكي ابنًا من أبنائه. ألم جماعي مشهود. جاءنا عدد من الذين شاهدوا وعرفوا سبب بكائنا، انضم لنا البعض من الشوارع القريبة. سيدات ينحن في حزن مقيم. أجلسنا الموجوع في ابنه، وجلسنا حوله في مأتم. نحن ومن أتوا نواسيه في ابنه ونواسي أنفسنا، نصبره بأن ابنه صار شهيدًا وله الجنة. الوجع جماعي. كلنا نفوس ثكلى. كلنا قُتِل منا بعضنا. كل منا نال طعنة بشكل ما فالدم واحد والحسرة واحدة.

تكلم المكلوم وهو يحاول التماسك ودموعه تأبى التوقف. أبلغنا أن ابنه حسين حدثه كثيرًا عن بولاق الفرنساوي، وعن صديقيه نصّار وأبي إسكندر الأسمر، وعن الكبير أبو قلب كبير عليوة الزرباوي.

لم تعد الجلسة تضمنا وحدنا، أتوا بمقاعد ليجلسوا بجانبنا، والكثير ممن لا نعرفهم ولا يعرفونا، لكنهم أصحاب شهيد مثلنا مثلهم يقفون حولنا. عدد من الفتية جلسوا أرضًا، فتية آخرون مع صاحب القهوة يسرعون بتوزيع أكواب المياه، وصاحب المقهى يعد كميات من الشاي للجميع.

ساعة استغراق حزين، ثم وقف أبو حسين وطلب مني ومن نصار أن نأخذ بثأر ابنه، وقبل أن نودعه عليوة الزوربا قال..

-تار ابنك حسين حياخده. ولادك دول..

وأشار إلى نصار وإلي واستمر في التأكيد..

-لا يمكن شبابنا في الجيش يسيبوا تار ابنك حسين، تار بلدنا. اطمن يا أبو الشهيد.

رفض أن يبقى ويشرب الشاي الذي أتى له. قام بدون أن يصافحنا باليد. فقط سلامو عليكو. فإن صافحنا سيعود للانهيار وتعود المناحة. عدد من الشباب والرجال رافقون ليطمئنوا عليه. وبعد انصرافه بقينا في وجموم. عاد عليوة الزوربا للبكاء ونحن معه. انتهت السهرة بوجع قلب.

شهور مرت. كنا في فترة هدوء على ضفة القناة. تغيبت طويلاً عن بولاق الفرنساوي، وأخيرًا أتت الفرصة فذهبت للمقهى حيث ينتظرني نصار وبقية الأصدقاء. نجلس أمام كبيرنا الزوربا. ضربت في دماغنا نديها سهرة في حجرة الزوربا. أخذنا موافقته الرحبة، ومن ضمنها أن يحضر معنا محمد الضائع.

استشهاد حسين لم يمر عليه الكثير من الوقت. كلنا نكتم الحزن الحامض داخلنا، ونريد التنفس الرطب لنبرد حشانا. علينا تحضير مؤن تكفي سهرة ستطول، نأتي بكمية كافية من الفلافل الساخنة الحراقة، وبوازيها المخلل المتنوع، مع حزم من الجرجير وأمثاله، هذه المواد لنا، أما زوربا فيأكل ما يصر عليه، حتى لو تكلفة ما يصر عليه ستؤثر على كمية الخمور التي سنحتاجها، يجب أن نأتي له بأربعة أرغفة فينو محشية بالكبدة من دكانة ابن الوسخة! هذا وإلا فلا. حذرنا الضائع من مجرد النظر لسندويتشات الزوربا، وإلا لعنه الزوربا وربما ضربه وطرده. العريض أتى بكل المطلوب ومن بينه ثلاث أو أربع زجاجات معبأة بالخمر التي لا تطاق، خمرة لا يحتمل مفعولها إلا من كان مثلنا، من ذوي الجيوب الخاوية، والآمال المكتومة.

الزربية. نعت يليق بحجرة عليوة الزوربا. معتمة مظلمة عطنة، في بيت هو دور أرضي فقط، ورغم قصره، يبدو للرائي وكأنه يرقص رقصة الوداع. لمبة جاز مصابة بالعمش فكيف تكون إضاءتها؟! لكن عمشها أفضل، فالحجرة تحوي كل ما لا يسر. حشية داكنة ملقاة بجوار جدار، وهذا بقايا سرير تكسرت قوائمه فتم الاستغناء عنها، فصار السرير حشية مغمى عليها وأمامها بقايا حصيرة هزيلة، فجواتها

أكثر من المتبقي فيها. منضدة إن هززتها بأكثر من اللازم.. تنكب أرضًا وتنثر كل ما عليها. ورغم كل قبح الزريبة.. فهي رائعة! كيف؟ لا منطق إلا منطق الانسجام، والحالة المزاجية التي نكون فيها. إنها زريبة زوربا يا جدعان!

يجلس زوربا على الحشية وعلى يمينه أنا وعلى يساره نصّار، وهو بهذا يكرمنا فقد أجلسنا على المنصة. أما العريض والضائع، فهما على الحصيرة، وكل منهما بحظة، ربما يكون جالسًا على الحصيرة النحيلة المنحلة، أو يكون جالسًا على إحدى فتحاتها، وبهذا تكون مؤخرته منها لرطوبة الأرض الترابية، لا يهم، فالجلوس على لحم الحصيرة المتهرئ أو على إحدى فتحاتها يستويان.

تمتلئ الحجرة العمشاء بنسائم الفلافل، ونسمة ضئيلة مغلوبة على أمرها، هي رائحة الكبدة التي ينهال عليها زوربا بعد أن يقول لنا مستهزءًا شامتًا:

-اتفضلوا معانا. كبدة ابن الوسخة أحسن كبدة في حتتنا.

وطبعًا وحده سيبتلع كل السندويتشات، إنها الحالة الوحيدة التي يكون فيها عليوة الزوربا بهذه الأنانية والغلظة. نكتفي بالدعاء عليه بأن يصاب بمغص في الصباح. ولم يحدث مرة أن آلمته بطنه بسبب حشوها بسندويتشات الكبدة. بل في النهار حين يصحو في المغرب، يكون في حالة انتعاش. وحين يسأله أحدهم عن سبب انتعاشه، يقول بكل فخر..

-على حسابي. اتعشيت بكبدة من عربية ابن الوسخة.

يبدأ عليوة الزوربا في صب الكؤوس. كأسي أنا أولاً، ثم نصّار ثم الباقين ثم هو. تواضع منه. سهرتنا هذه، كانت أصخب وأفخم وأحلى السهرات التي أقيمت في زريبة زوربا. كانت حرب الاستنزاف قد توقفت، وكنا أنا ونصّار في إرهاق تام. ثم ليلتها إذ فجأة دخل علينا موريس. وموريس مجند مثلي أنا ونصّار. كتيبته في الجزيرة الخضراء. مكان خطر وقعت فيه معارك دموية شرسة متوالية. طائرات العدو ألقت على المكان كميات من الجحيم لتدك وتهزم كتيبتنا هناك. فشلت رغم جبروتها.

استشهد الكثير من الضباط والجنود، وها هو موريس حي يرزق. نال إجازة أخيرًا فأسرع إلينا ليفرج عن نفسه. قمنا وأخذناه بالأحضان حتى أنا الذي أول مرة أقابله، ويشاهد هيئته ضبابًا نظرًا لضعف نور لمبة الجاز العمشاء. موريس يأخذ منا وقتًا يحكي المعارك التي شارك فيها، يتحدث عن تحملهم الأسطوري لغارات الطائرات الجبارة، وعن أصدقائه الذين استشهدوا، وهنا جاءنا خيال حسين ليجلس معنا باكيًا. نترك سيرة القتال وننـدمج في الشرب والضحك والسخريات من بعضنا، ولا يسلم حتى عجوزنا زوربا من سخرياتنا، يضحك فمع الكؤوس صرنا كتفًا بكتف، وهذه من مزايا كؤوس الراح سواء المفتخرة أو المنحدرة، مزاياها عديدة حين يتوغل الشاربون في كربعتها.

نسمع حكايات عليوة الزوربا، وأنا ونصّار نضحك أكثر من غيرنا، لكن موريس يزيد عنا في الضحك الذي يقارب الهيستريا. زوربا له حكايات نسائية عديدة، هذا أيام الشباب وما بعد الشباب بقليل.

الآن أدركته الكهولة، ويقترب من خط بداية حقبة العجائز. لا يحكي الزوربا عن مأساته مع زوجته الثانية، المعلمة فلّة وإلا باظت السهرة وتحولت لغضب منه علينا. سألناه فقط ضاحكين عن معركة الحمير؟! فسبنا وأصر أنها معركة الكايبوي. حكاها بتفاصيلها خاصة مشاعره وهو على حماره المتقدم على بقية الحمير. نشوته وهو يتلبس حالة زعيم الآباش، ثم ضربه للفتوة مَكْمكْ، وكيف أنه أحس بنشوة ثانية وهو يتوغل في إيذائه، ثم ندمه على كل هذه القسوة، والتي بسببها ترك شغل الفتونة.

أتانا مؤجر الحجرة الثالثة وهو بالملابس الداخلية المهلهلة، يرجونا أن نقلل من صخبنا فهو وزوجته وابناه لا يستطيعون النوم. فعزمه الزوربا لينضم لنا ويتناول كأسًا. تركنا الرجل حانقًا وعاد لحجرته.

سخنت الجلسة ومازالت بعض زجاجات الخمر تنتظرنا. الضحك والغناء والرقص لم تعد حجرة الزريبة تستوعبه، ولا تستوعب بخر تنفسنا وعرقنا، فليس لها حتى نافذة، بل مجرد طاقة ضيقة مغلقة دومًا بقطعة خشب. انطلقنا للفسحة وعلقنا لمبة الجاز العمشاء في الحائط. وأخذنا نرقص ونغني، فجأة انضمت إلينا أخت زوربا ومعها ابنتها الصبية.

كلتاهما بجلباب بسيط عاري الذراعين واسع الصدر. أتيتا بلمبة جاز مبصرة وعلقاتها وأخذتا في الرقص معنا، العريض يضرب على صينية وكأنها طبلة. زوربا خلع جلبابه وصار بفانلة حمالات ولباس بلدي يصل طرفاه لأعلى ركبتيه. وبدون اتفاق خلع كلنا قمصاننا

وبقينا بالفانلات الداخلية، لكن لم نخلع البنطلونات حرجًا من أخته وابنة أخته.

الزوربا يتوسطنا مادًا ذراعيه جانبًا على أقصاهما. ينظر لسقف الفسحة هائمًا، فابتعدنا وشكلنا دائرة حوله فلم تكتمل الدائرة فكنا مخمورون. يرقص الزوربا رقصة زوربا في بداية هادئة. ساقاه في هدوء تتحركان بدقة العليم بالرقصة. نحن نشارك مقلدين له في نفس الإيقاع الهادئ، ومعنا أخته وابنتها اللتان لم تريا الفيلم، تقلدانا ضاحكات. نعزف بأفواهنا موسيقى الأغنية.. ترم.. وحمدي العريض بصوته القراري يجيبنا.. بام، فكان اللحن ترم.. بام ترم.. بام. تري لي تري لي.. بام بام. الزوربا موسيقاه من داخله، التي من خارجه زيادة الخير خيرين. نسخن كلنا ونقف ونحن نصفق له ونعزف وهو يلتف حول نفسه وذراعاه عاليًا تتلاعبان. وصل زوربا للانسجام العالي. يسرع في حركاته ونحن نواصل أداء اللحن في سرعة. أولاً موريس دخل يشاركه الرقص، ثم كلنا.. كلنا معشر السكرانين ومعنا أخت الزوربا التي تناولت معنا كأسًا. كلنا نشارك في الرقصة الزورباوية، حتى الفتاة ابنة أخته انضمت واندمجت معنا.

نضحك مبسوطين خاصة عندما اكتشفنا أن الجار المنزعج. يقف وسط عائلته يضحكون ويصفقون مع الرقصة! تندفع موسيقانا مع التصفيق القوي وسخونتنا جميعًا. زوربا يصرخ مثل أنتوني كوين.. أبّاااا. يبدع رقصًا ونحن نخرف رقصًا ولحنًا وتصفيقًا.

بلغت الرقصة ذروتها وألقى زوربا بنفسه أرضًا ليقعد وسط الدائرة ثم ينام على ظهره وهو يتنفس بعمق ويضحك ضحكة أنتوني. ارتمينا

على ظهورنا بما فينا الأخت وابنتها. وموريس يضحك وهو يبكي. ألقى علينا الجار المنزعج تحية تشجيع وعاد وعائلته لحجرته.

كانت ليلة أنس مشبعة ممتعة، ليلة هي رصيد من الفرح يساعدنا على تحمل الترح. قعدنا نلهث. الزوربا ضحك لأخته وابنتها. أشار فأتى له أحدهم بكأس مترع. تناوله وناوله لأخته التي قامت وقبلته ثم أخذت الكأس وعادت تجلس بجوار ابنتها وتحتسيه. يا الله.. كم نحن تعساء.

لاح الفجر وبدأ النهار يشقشق. عليّ أنا ونصّار الانصراف للعودة السريعة لوحدتنا القتالية. في القطار جلسنا متجاورين، أنا ونصار. طلبنا من الجندي الذي يجلس بجوارنا أن يوقظنا حين نصل. وفي طابور الصباح. النوم يغالبنا ونقاومه. لم نكن متعبين فقط، بل كنا أيضًا في حالة روقان، لكن النوم الثقيل يكبس علينا.

وأتت المعركة الرئيسية. عبرنا القناة فيما يشبه الإعجاز. أسبوعنا الأول وكأننا نقوم بتمثيل فيلم هوليوودي. طائراتنا تعبر من فوقنا لتقصفهم قصفًا مفاجئًا. نيران مدفعيتنا تلهبهم. ثم عبور مئات من القوارب المطاطية على سطح القناة وعليها ألوف الجنود، ثم صعود الجنود واعتلاؤهم السد الرملي العالي الذي بناه العدو الإسرائيلي. ثم نقتحم حصونهم التي قيل إنها لا تُقتحم ولا تُنسف سوى بالقنابل الذرية. جنودنا عفاريت ليس لقدراتها حدود. ومع هذا الذي يُفرح على الأرض وعلى المياه، يوازيه الذي يُفرح في السماء. صواريخنا تنطلق لتسقط طائرات العدو الحديثة. وتستمر المعارك. نفقد أولاً قائد كتيبتنا عادل فهمي ثم الرقيب محمد مسعد وصلاح ولملوم

وغيرهم، لينضموا لمن سبقوهم استشهادًا في حرب 56 و67 والاستنزاف. وقبل أن تتوقف المعارك يستشهد فاروق. ثم تتوقف المعارك.

إجازة بعد توقف إطلاق النار. زيارة لبولاق الفرنساوي، الشعب منتشٍ بالنصر. نحتفل حول كهلنا الحبيب عليوة الزوربا. الزوربا استقبلنا بأحضانه القوية. ثم رقص في وسط الشارع، ونحن بأيادينا نصفق وبأصواتنا نعزف موسيقى لحن زوربا، فانضم لنا الجميع رجالاً ونساء وبالطبع أطفالاً، وكل يرقص رقصته الخاصة المنسجمة مع غيره. أبدع الزوربا في رقصته فَشَرْ أنتوني كوين نفسه.

انتهت سنوات خدمتنا في الجيش. نفترق نحن رفقاء السلاح. حتى أنا ونصّار، افترقنا سنوات عن بعضنا، متطلبات الحياة لا تنتظر في بلد مُتعب من الحروب. فإذا بانفتاح اقتصادي، تنفيذه الغبي أتعب الناس وأتعبنا نحن أكثر وأكثر، فنحن حين أنهينا سنوات الحرب، كنا على ضفة انهيار نفسي.

بعد غياب طويل، زرت بولاق الفرنساوي. فقالوا إنه ترك قهوة سلامة ويجلس على قهوة 23 يوليو! لن يقوم الزرباوي بهذه الحركة، إلا إذا تحسن حاله ماديًا. عرفت بعدها أن ابنته منجة ترسل له معاشًا بسيطًا، وأخته وابنتها يهتمان به.

ذهبت لقهوة 23 يوليو. شاهدني مقبلاً عليه فصاح..

-أبو إسكندر الأسمر!

أخذني بالأحضان القوية. سألته عن نصّار فقال..

-ماتت أمه ومات أبوه. أخته أم ناهد وابنها رحلا لمكان شعبي آخر. العريض سافر للعمل في الخارج. فايق الذي لم يعد بتاع بنات، تخطى مرحلة المطاردات المراهقية وخطب فتاة من خارج بولاق الفرنساوي، وبعد سنوات أطلق لحيته وحف شاربه. بقي محمد الضائع يسكر ويبكي ويغني.

يهرب من سؤالي عن نصار، فكررت السؤال..

-ونصّار.

-سافر يشتغل في الخليج. مع جوز أخته.

-الخليج! ويشتغل إيه هناك؟

-نجار مسلح.

-إيه؟

-نجار مسلح!

-الهزيل مريض الكبد يشتغل نجار مسلح؟

-اللي بيحصل معانا كتير. كتير قوي يا جدع. ليه لسّة الفقر راكبنا؟ مش انتصرنا خلاص؟ مش قلنا حنبني وآدي إحنا بنينا السد العالي؟ حنقضيها غُنى حماسي وحالنا زفت مطيّن بطين؟ طب لحد إمتى؟ ما تفهمني يا بتاع الكتب؟

-لما أفهم أبقى أفهمك.

-غنولنا يا.. يا حبايب بالسلامة، على أن ولادنا راجعين بالسلامة من اليمن، لكن جارنا العسكري في الشارع اللي ورانا، مات هناك، في اليمن. واللي في الشارع اللي قدامنا رجع مكسور، برضه من اليمن. كان إيه لزومة نروح نرمي شبابنا هناك؟ وليه نصرف فلوسنا؟، ونصّار كلمني عن فقر وغلب الصعيد مثلاً؟ ولا بيوتكم إنتم المنيلة؟ تعرف يا أسمر إسكندرية؟

-لأ مش عارف.

-الأغنية يا.. يا حبايب بالسلامة، كانت بترقص حلو. هاها. يا غلبي.

أشهر قليلة، وشارك عليوة الزوربا في ثورة 18 و19 يناير. انبطح في رأسه واستطاع الهرب عائدًا عرينه.

وفي بيت من بيوت الشارع، أتوا بممرض حاذق، فقام بخياطة الجرح، وبقى الزوربا مستكينًا حزينًا لأسبوع كامل. قابلته بعد هذه الواقعة بأشهر. شرينا الشاي. قال لي..

-ياللا بينا نتمشى شوية. مخنوق.

-نروح شارع شامبليون؟

-لا. لو كنت ضامن إن موريس هناك، يمكن كنت رحت. بُصْ.. خلينا في بولاق.

نسير معًا في شارع 26 يوليو متجهين ناحية النيل. مررنا على جامع أبو العلا. استمررنا في المشي. زحام شديد والسماء تمطر مطرًا خفيفًا ثم تتوقف. لا حوار بيننا. عليوة الزوربا مقاطع الكلام. بقينا على ضفة النيل. نعود والمطر الخفيف عاد. ثم بدأ عليوة في الكلام..

-شايف يا صاحبي. الناس زحمة، لكن كل واحد لوحده، حتى لو ماشي مع غيره، كل واحد لوحده! غريبة! شايف.. الناس وشوشها بقت كالحة! مكنّاش كده. لونا بقى رصاصي. مش غريبة دي؟! الكل بيسرع في المشي حتى ولو مش وراه حاجة! الناس مش زعلانة. ولا مبسوطة طبعًا. تقولش مذهولين ومفجوعين! لكن تعبانين. بس حيزعلوا؟

مررنا على جامع أبو العلا. فإذا بعليوة يدخل فادخل خلفه. نخلع النعلين وندخل للميضة لنتوضأ. شمرت كمي قميصي وشمّر علوية كمي جلبابه. أنا أتوضأ وهو لا يتوضأ، بل يسكب الماء على يافوخه حتى بلل رأسه ووجهه وعنقه وتقويره جلبابه. تركته وذهبت لصحن الجامع انتظره. أتى ولم يجفف نفسه. تقدم رجل منا وقال..

-نصلي جماعة.

أجابه عليوة في حدة..

-لأ.

قال الرجل ناصحًا..

-صلاة الجماعة بركتها وثوابها أكثر بكثير، وتقدر بـ.

-قلت لك لأ.

ابتعد الرجل متعجبًا. نظر لي عليوة وهو يبتعد لمسافة وقال..

-صلي لوحدك. أنا حصلي لوحدي.

صليت ثم نظرت جانبًا حيث عليوة، فوجدته يصلي صلاته الخاصة! ساجد سجدة طويلة. ثم يقف ليكبر ثم يقرأ قراءة سريعة ثم يسجد مباشرة بدون الركوع! يسجد مدة طويلة ثم يقف وهكذا. انتظرته كثيرًا ولا حظت دموعه الغزيرة. ثم أنهى الصلاة وبقي جالسًا. اقتربت وجلست بجانبه. لم ينظر لي. بقينا دقائق طالت بنا، ثم وقف وقال لي..

-ياللا بينا.

المطر كان ينهمر غزيرًا، لم يهتم واستمر في المشي تحت المطر. الناس تسرع وتكاد تجري، وأغلبهم بقيت تحت البلاكونات وتند المحلات حتى يهدأ المطر، لكن عليوة لا يتوقف. توقف سريعًا أمام سيدة رثة تجلس أرضًا وتمد يدها تطلب حسنة. لحظات ينظر إليها مشفقًا غاصبًا. أعطاها ما جادت به نفسه. عاد يسير سريعًا. دقائق عشر ودخلنا بولاق الفرنساوي. ربع ساعة ودخلنا بيته. حاولت أن انسحب لكنه أمسك بي وأدخلني معه. اقترب من حجرة أخته وقال..

-الشاي. معايا الواد بتاع إسكندرية.

نصّار من سنوات الحرب الأخيرة، كبده نقح عليه. صار ضعيف البنية. كيف يعمل نجار مسلح! هو خبير بهذا العمل، فقد كان أبوه

مقاولاً وتدرب ابنه على أكثر من صنعة، لكنه الآن مريض! لم يقدِّر أحد سنوات الحرب التي خاضها. لم يعوضه أحد عن صحته. ما ناله هو استماعه لأناشيد فاترة تشيد بما قام به من بطولات. ومن كتبوا هذه المرقعات، نالوا عنها ألوف مؤلفة من بواكي البنكنوت، ولم يستكف بهذا الزعيم المؤمن، بل صار كل عام في ذكرى العبور الأكتوبري، تنتج الدولة أوبريت سخيفًا، يصرف فيه الملايين، هذا ونصّار ليأكل لقمة عيشه ويصرف على عائلته، يضطر للسفر ويعمل نجار مسلح، وهو الهزيل المريض!

الزوربا حزين، الأيام تمر وتتعب ملامحه. وكلنا مثله فيما عدا القلة المستغلة التي تطفو فوق بحيرة ضيقنا. ولم أشاهد عليوة الزوربا سنين عددًا. تخطيت أنا الكهولة وشارفت على حقبة العجز. ذهبت لبولاق الفرنساوي. قهوة 23 يوليو. سألت عنه، قالوا كان مريضًا، وأتت ابنته التي تحجّبت للإسكندرية وأخذته عندها.

سنوات أخرى وذهبت أسأل في المقهى، فوجدته قابعًا في ركن. لم أصدق أن الجالس هذا هو عليوة الزوربا! عجوز نحيف متعب. التشويه في خده الذي لم يكن مؤثرًا على وسامته الرجولية، صار تشويهًا قبيحًا على وجه عجوز هضيم. يرتدي جلبابًا نظيفًا وطاقية أنيقة. في قدمة حذاء لمّيع. أي أنه في حالة مادية طيبة. اقتربت منه. إنه مومياء عليوة الزوربا. ألقيت عليه السلام. سمع سلامي بالكاد. رفع رأسه ليراني وأنا أقف أمامه.

-وعليكم. مين؟

-أنا أبو إسكندر الأسمر.

-مين؟

-أنا أبو إسكندر الأسمر.

-يعني مين؟!

ثوانٍ لم أستوعب الأمر، ربما كان يسخر مني وسيضحك حالاً. لا. ينظر في تساؤل. سحبت مقعدًا وجلست بجواره. سألته إن كان جلوسي يضايقه قال أبدًا. على الأقل تونسني. بس إنت مين؟

-معرفة قديمة.

-آه. كل معارفي يا ماتوا يا أنا موتهم، هاها. نسيتهم يعني.

-بس تنسى أبو إسكندر الأسمر. صاحب نصّار؟ إزاي؟!

-يا ابني والله ما نا فاكر. أنا بقولك يا ابني. أوعى تكون سنك كبيرة وعجوز زيي؟

-لا أنا زي أخوك الصغير.

-ماشي. وبعدين؟

-ولا قبلين. بص أنا ما فطرتش. وعايز أفطر.

-أفطر يا أخويا يا صغير. أفطر.

-بس أنت تطلبي الفطار.

-إشمعنى؟

-عشان أنا ياما جبت لك الفطار يا عجوز يا نسّاي.

-الله الله الله. أنت مين يا بتاع إنت؟!

-هاها. أنا أبو إسكندر الأسمر.

-ينعل أبو اللي خلفوك، إن كنت أسمر ولا أحمر.

-هاها. ماشي. ياما شتمتني زمان. أيام الحرب.

-الحرب!

-آه. نصّار وأنا وموريس وحسين.

-ولا كأنك قلت حاجة. بص خلينا في النهاردة. أنا نظري قرب يمشي ويسيبني. وقلبي عمال كل يوم يرفرف عايز يطير ويهجرني. حركات ندالة بعيد عنك. رجلي بتمشي بالعافية. إيدي لو ضربتْ قطة، إيدي توجعني! تخيل؟ كنت زمان أنا فتوة يعجبك.

-عارف.

-عارف! هو أنا ضربتك قبل كده؟

-لا. بس كنت صاحبك، رغم إني أصغر منك بكتير.

-أيوه إعملي فيها شاب وعايرني بإني عجوز.

-إنت عايز تِكَرْوتْني؟

-ليه؟ يا عكننة؟

-مش وافقت إنك تفطرني زي ما أنا فطرتك زمان كتير؟

-على فكرة إنت واحد متعب وندل وخسيس، فعلاً باين علينا كنا أصحاب بجد. حنفطرك يا غلس.

-يبقى نفسي في كبدة ابن الوسخة.

-يانهار أبوك منيل بستين نيلة. إنت تعرفه؟

-مش إنت اللي ضربته وعريت لمؤاخذة.. أقول؟

-آآآه. فقعته علقة.. إنما إيه! عجب. بس يستاهل كان بينصب عليّ. لكن هو اللي كسب. ابن الوسخة واللي زيّة همّ اللي طلعوا لفوق في العلالي، وأحنا نزلنا تحت في الواطي واطي.

-نرجع مرجوعنا.. قلت لك ياما فطرت على حسابي؟

-هو أنا مش فاكر صحيح. لكن حنفطرك كبدة ابن الوسخة عشان ما تعايرنيش يا نتن.

صفق فأتاه الجرسون، طلب من الجرسون أن يبعث له الشاب إياه. جاء الشاب فأعطاه عليوة الزوربا عشرين جنيهًا ورقة واحدة ليأتي بالمطلوب، ومن دكانة كبدة أولاد ابن الوسخة.

أتمعن في هذا العجوز المتهالك. ترى كم أمامه من أيام يعيشها. سألته..

-لسة في أوضتك إياها؟

-لا. إنت عارف إن الحتة كلها بقت أبراج. يتهد بيت صغيّر قصيَر ويطلع مكانه برج شيطاني. فاضل بيتي أنا. قلت يعني أنا اللي حفضل فقري، وناكل ونشرب ونلبس من فلوس بنتي؟ وافقت. مقاول كتب كونتراتو معايا. يبني برج 16 دور. وأنا لي فيهم أربعة أدوار. حنكسب دهب. دلوقتي هو مدبر لي شقة صغيرة أقعد فيها، هنا قريب في بولاق ماسبيرو.

-يعني يا الزوربا، أخيرًا حتعيش في شقة فيها خمس غرف وحمامين؟ آه. تشبه شقة المعلمة فلّة.

صمت ولم يجب، ثم تكلم أي كلام حتى أتت السندويتشات وتم فتح الظرف الهايل على المنضدة، نأكل أنا وهو بشراهة. هو في حالة حياد، وأنا في حالة حزن. الذي أمامي ليس عليوة الزوربا، إنه أطلاله. ونحن نتحدث تذكر شيئًا، تذكر عندما ألقى بسندوتشات الكبدة أرضًا لأن محمد الضائع مد يده وتناول سندوتش منها. يومها شتمنا الزوربا كلنا. بقي طول السهرة مُكَلْضَم. قال عليوة الزوربا فجأة..

-هاها. فاكر لما رميت سندويتشات الكبدة، لما الواد الضائع مد إيده وخد سندويتش؟!

صحت.

-فاكر طبعًا. ما أنا كنت قاعد معاك؟

-صحيح؟

-وكان معانا نصّار وحسين. فاكر حسين؟.

فترة وهو ينظر لي ويبربش وفمه مغلق ولا يلوك ما فيه. ثم ابتلع ما في فمه وتناول جرعة ماء ثم صاح..

-أنت..

-أيوه.

-أنت أبو إسكندر الأسمر؟

-هو أنا يا عليوة الزوربا.

-حبيبي وحبيبي نصّار وحبيبي حسين. آه يا حسين.. حسين اللي استشهد. يااااه.

قام من مقعده وتقدم نحوي فقمت لأتلقى أحضانه ويتلقى أحضاني. ذراعاي أحسا بهزاله. أحسا بعظامه وهشاشتها. بكى بعمق وبكيت بعمق. أقول لنفسي..

-أهذا ما تبقى من عليوة الزوربا؟

رحلت من القهوة وأنا في حيرة، هل سأقابله ولو لمرة ثانية؟ تُرى.. هل سيعيش حتى يكتمل البرج، ويسكن شقة كاملة كان يحلم بها؟

(((((())))))

12-(ابن المحظوظة) حسن زيادة

ما حكاه لي نصّار عن حسن زيادة، ثم ما عرفته شخصيًّا عنه.

اسمه حسن زيادة، واقعيًّا هو مطابق للقبه زيادة. فقد وهبة الله الزائد من الحُسن والرشاقة وأضيفت له الأناقة، كما أُعطي حدّة الذكاء ورَوَقان المعيشة، وأفاض الله عليه بالزيادة فوق الزيادة فوضع فيه جاذبية فتّاكة للنساء. ولهذا أطلق عليه صديقنا نصّار لقب (ابن المحظوظة). حسن زيادة وُلد وعاش طفلاً وصبيًّا ويافعًا في بولاق الفرنساوي. يحلم ويعمل ليترقى فيسكن الزمالك ويتزوج فتاة من هناك، لا من هنا. فهناك الرفاهية والسؤدد وهنا الفقر. بعد سنوات قفز قفزته الرائعة ليتخطى النهر الفاصل بين مكانه الفقير ليصل لضفة الميسورين، ضفة الزمالك الأرستقراطية فيسكن بينهم، فتعشقه النساء الزمالكويات كما عشقته النساء في بولاق الفرنساوي. فعلاً ابن محظوظة.

حادثة ظريفة تعرض لها حسن وكان في الرابعة عشرة من عمره فقط. عُرس ضخم فخم في الشارع. منصة خشبية عالية يجلس عليها العازفون. أكورديون وعود ومزمار وكمان وطبلة ورِقْ. أمامهم حوالي مائة مشاهد على دكك متراصة. لا شادر يحوط. النساء والفتيات في النوافذ والشرفات وعلى أسطح البيوت القصيرة. بعد المغرب لمبات كهربائية وكلوبات جاز تنير المكان تمامًا. مغنيون

ومغنيات، ورقصات حماسية على أجناب الحضور. ميكروفون على عودة الحديدي يستخدمه المغنون. ومكبران للصوت على جانبي الشارع. حسن زيادة يقف بجوار المنصة وبجواره نصّار. على المنصة تغني مغنية في الأربعينيات من عمرها. سمينة الجسد على رأسها ما يشبه العمامة. قوية الصوت. تغني وهي تنظر لكل الحضور وتشير لهم لتسخينهم فيندمجون معها. شاهدت الفتى حسن زيادة. ركزت عليه نظراتها، وهي ممسكة بالميكرفون، بيدها الثانية أشارت على حسن وغنت..

إدْلَع يا حِلِوْ يابو رمش مكحلو.

القمر والنجوم قدامك يرحلوا.

الجماهير نظرت حيث أشارت المغنية. والمتابعون من النوافذ والشرفات والأسطح كذلك. أغلبهم تبين لمن تشير المغنية. إنه الفتى الصغير الوسيم حسن زيادة! حسن ارتبك ولم يعرف كيف يتصرف. صديقه نصّار يضحك على تعبيرات وجه حسن. المغنية تعيد الكوبلية مبتسمة من ارتباك حسن. حسن يهرب للخلف مزيحًا بظهره كل من يقفون خلفه. ثم استدار معطيًا ظهره للمغنية والجميع ليولي هاربًا. هذا المشهد ساعد في شهرة حسن زيادة، بداية كان يغضب من الإشارة لهذه الأمسية، لكن بعدها كان حسن زيادة يبتسم في سعادة حين يحكي نصّار عن تلك الواقعة.

أبوه مثل عشرات من رجال وشباب بولاق. يعملون في خدمة عليّة أهل الزمالك. لكن أباه عم زيادة له وضع خاص في عمله، وبالتالي

عند جيرانه، والدليل أن له زيًّا فاخرًا خاصًا. حُلّة كاكية بأزرار براقة نحاسية. وكاب على الرأس به شريط أحمر، والحذاء أسود أنيق لامع كسيارة الباشا التي يسوقها له. يعمل سائقًا خاصًا لباشا شهير يعتبر من علية باشوات وبكاوات الزمالك. ويمتلك عدة سيارات تخدم عائلته. اسم هذا الباشا له وقع فخيم في دوائر المال والسلطة. باشا يمتلك فيلا واسعة رائعة في الزمالك، وتلك الفيلا تعتبر مبنى صغيرًا بسيطًا، إن قورنت ببقية قصوره المتناثرة في أنحاء مصر!.

الأب عم زيادة يقبض مرتبًا ممتازًا بصفته سائق الباشا الأهم، مرتبه المحترم أعطاه الفرصة ليكون من علية القوم في بولاق. مسكنه بيت قوي راسخ متين أمامه شجرة وارفة، بيت من طابقين سفلي وعلوي، البيت لهم وحدهم! علمًا بأن أغلب عائلات بولاق وقتها، يسكنون شققًا مشتركة بحمام مشترك.

ورغم دخوله مرحلة الكهولة، فبوسامته واعتدال جسده والحلة الزاهية التي يرتديها، يدخل ويخرج من الحي فخيمًا رائعًا مزهوًا، وكأنه جنرال شاب بسم الله ما شاء الله. وكل أسبوع يأخذ زوجته الجميلة وأبناءه المشعين بالوسامة وهم في أبهى الثياب، يذهب بهم ليتفسحوا في وسط البلد، ويتناولوا غذاءهم في المطاعم، ثم يدخلوا دور السينما الممتازة، ومعهم أكياس الفشار.

زيادة وهو يقود عائلته خارجًا من الحي، وهو عائد معهم، يكونون مثل محفل ملكي مُذهب يستعرض جماله وأبهته، لتحملق فيه العيون وتتلوع القلوب فيها، سواء كان ما فيها غبطة طيبة، أو حسد مُشعلل.

الأب في سنوات مراهقته، أحب ابنة جنايني فيلا الباشا. الفتاة جميلة ممن نلن اللون الأبيض القريب من الشقرة، وتاجهن شعر كستنائي لا هو أسود ولا هو أصفر. فتاة جمعت جمال شاطئ البحر الجنوبي المصري، مع جمال شاطئ البحر الشمالي الفرنسي. ثم.. ما الذي جمع الشمالي الفرنسي البعيد ليؤثر في الجنوبي المصري، فينجبان تلك الثمرة الرائعة؟! هذا موضوع تاريخي له ناسه من مؤرخين وخلافه. موضوع يسعد أغلب الناس من أمثال تلك الفتاة الجميلة، وأيضًا يضايق الكثير منهم، لأن في بعض تلك الشروحات إيماءات سخرية.

فلما تزوج زيادة الصعيدي ذو اللون القمحي المتماوج، من ابنة الجنايني ذات الجمال فائق البياض، أنجبا ذرية حلوة جمعت حلاوات عدة في سلة واحدة، فصارت تلك الذرة محط الأنظار ومبعث الإبهار. ذرية عم زيادة بدأت بابنه الوسيم حسن، ثم بنتين تركز فيهما تنويعات جمال نصف الدنيا! ولذلك تزوجت البنتان الجميلتان في سرعة مدهشة، إحداهما سكنت بولاق ماسبيرو، والثانية ذهبت مع زوجها حيث ذهب.

ورغم كل هذه المزايا التي يتمتع بها حسن من عمل والده سائقًا. لم يكن حسن راضيًا عن عمل أبيه، من صغره وهو على يقين بأن أباه أفضل من الباشا الذي يعمل عنده مجرد سائق! وأن مكانة أبيه تؤهله ليسكن الزمالك، في قصر الباشا نفسه وليذهب الباشا إلى مكان آخر يسكنه، وللباشا أن يأتي لحي بولاق الفرنساوي ويشتري بيتهم، فبيتهم من أفضل بيوت المنطقة.

لم يكن حسن راضيًا عن مهنة أبيه، رغم أن مهنة أبيه هي التي جعلت حسن في مكانة يحسده عليها أبناء حيّه. فبخلاف بيتهم المميز في المنطقة، وبخلاف حالتهم المادية المميزة بين كل الجيران، فعمل السائق أفضل كثيرًا من عمل غيره. فغيره يعملون في تنظيف الشوارع وهم بائعون جائلون أو لهم دكاكين صغيرة بسيطة كالحة، ومنهم الشيالون والسباكون والكهربائية والبناؤون وغيرها من المهن، وكلهم دائمًا بملابس العمل التي لا تعتبر جميلة أو أنيقة أو حتى لائقة، بالأحرى هي متربة. فأين منهم ومن مهنة سائق الباشا الأنيق النظيف دائمًا؟

حسن متطلع متوثب ليكون شيئًا مذكورًا. يتحرق ليوم يكون فيه عالي المقام، بما يعوض تواضع مقام أبيه. ينظر للزمالك في اشتهاء وجوانب من الوعيد. مُصِرُ أنه يومًا سيسكن في حي الزمالك الراقي وبجوار قصر الباشا ذات نفسه، وسيشتري سيارة كاديلاك فخمة مثل تلك التي يقتنيها الباشا، ويخصص لها سائقًا لا يشبه والده.

تخطى بسهولة مرحلة التعليم الثانوي، ولذكائه وتفوقه وطموحه، اقتحم كلية الهندسة، بعكس معظم شباب الحي، الذين تركوا الدراسة خلال مراحلهم الأولية، ومن واصلوا لم يتخطوا المدارس التجارية والصناعية المتوسطة، ومنهم نصّار.

تلك السنوات كانت الموضة وقتها الشعر الطويل، سواء كان الشعر أكرت أو جعدًا أو ناعمًا، بعكسنا نحن المجندون، فنكاد نكون قرعًا. حسن شعره ناعم لامع، يتعمد حسن تركه في شكل تاج أبنوسي مائي يحيط برأسه، ولا يترك مكشوفًا سوى صفحة وجهه، وحتى

هذه الصفحة لم يتركها الشعر، بل تهبط من أعلا خصلة لترتاح أعلى الجبهة. وحين يشد حسن في سيره، شعره الناعم اللامع يتراقص متناغمًا مع سرعة سيره، خاصة تلك الخصلة التي على أعلى جبهته، فيكون حسن نموذجًا للفتنة الذكورية الشبابية، وبعد سنوات وبعد أن قرأت وقرأت وقرأت، صرت أتذكر حسن زيادة وأتصوره في هيئة أنصاف آلهة اليونان، خاصة من أُطْلَق عليه اسم نرسيس أو نرجس. وهو الشاب الجميل الذي شاهد انعكاس صورته على صفحة الماء، فعشق جماله بغرور وأنانية، فكان جماله وغروره سببي موته. لكن حسن زيادة لم يكن مغرورًا، فقط كان وبقي عاقلاً يعي بوسامته ويحسها بدواخله ويرى تأثيراتها على وجوه النساء.

من أيام مراهقته، حين يظهر حسن في شرفة شقته، جيرانه من المراهقات يتأوهن، وحين يختفي يعدن مسرعات لفراشهن، ويلقين بأنفسهن على بطونهن، ويضربن بقبضات أياديهن على الوسادة، ويركلن بمقدم أقدامهن على الحشيات. أما في الصيف حين يظهر في الشرفة وهو يرتدي الفانلة الداخلية ذات الحمالات، وتحتها اللباس التحتي، فيا داهية دقي في قلوب الفتيات، وعدد لا بأس به من السيدات. حسن زيادة ابن الحرام، يتصرف بطبيعية تمثيلية طفولية، لكنه يعلم ماذا يفعل، فهو ألعبان رغم أنه ليس بالشرير ولا بالجبان. ابن زيادة يدرك ما حباه الله من زيادات.

صار حسن زيادة حبيبًا لعديد من أجمل فتيات الحي، بالإضافة لسيدتين إحداهما تحت زوج وتحتهما ثلاثة أبناء، والثانية مطلقة وحيدة، وطلاقها بسبب جمالها ودلالها الزائدين. ولما التحق بكلية

الهندسة، أحبه عدد من الطالبات، رغم أن حسن زيادة الذي يعتبر من أعلى طبقة في بولاق الفرنساوي، فهو في الكلية يعتبر من فقراء الطلبة! فقير لا يرقى لمستوى الطلاب المنحدرين من عائلات غنية بحق وحقيق. لكن حسن بوسامته وجاذبيته صار الفتى المرغوب أكثر من غيره. فضم لنفسه عددًا من جميلات الكلية، فوق العدد السابق من بولاق الفرنساوي.. فعلا ابن محظوظة.

بعدما تم وقف إطلاق النار بناء على مبادرة روجرز، وهدأت ضفتا قناة السويس المتعبتان، وسكنت المدافع وربضت الطائرات في مطاراتها تأخذ نفسها، أنا ونصّار على الضفة الشرقية للقناة صمتت بنادقنا ورشاشاتنا، وكُتب لنا امتداد العمر إلى حين، ومتى يحين هذا الحين؟ الله أعلم، فالمعارك لم ولن تتوقف طويلاً، فعدونا ليس بالعدو الهين. غادرت وحدتنا العسكرية ضفة القناة لتعاود التدريبات في الصحراء القريبة من القاهرة.

ننهمك تمامًا في التدريب اللازم. تدريب قاسٍ يسيل فيه عرقنا مدرارًا، وقيل لنا من ضباطنا.. إن العرق في التدريب يوفر الدماء في المعارك الحقيقية.

وكانت مقولة صحيحة، ففي المعارك التي سرعان ما أتتنا تترى، كنا مع شجاعتنا نعرف كيفية التصرف السريع الصحيح، في كل موقف جابهنا فيه عدونا.

نصّار وأنا نعرف عن علاقات حسن زيادة النسائية الكثير، أنا خاصة أستمع له بشغف أكثر من نصّار، بصفتي الأديب الذي لم

يعِ أنه أديب بعد، وسيعرف هذا بعد سنوات ستطول. نصّار مع كل حكاية من حكايات حسن زيادة، يسبه سبابًا على سبيل المزاح والغيرة النقية، ثم يختتم سبابه بقوله..

-يا ابن المحظوظة.

حسن طيب القلب. صعب أن يراه أحد عابسًا. يأخذ كل الأمور ببساطة وأريحية شبه ساذجة، رغم أنه ليس بالساذج. حاد الذكاء وعميقه أيضًا. لا يستجيب لمضايقات أترابه الشباب الذين يغيرون من اهتمام الفتيات به، خاصة مضايقات وملاسنات فايق بتاع البنات، فبتاع البنات تحولت غيرته إلى حسد وضغينة وملاسنات، لكنه لم يشتبك جسديًا مع حسن. فلا فايق بتاع البنات ولا غيره، يجرؤ على الاشتباك الجسدي به. حسن زيادة رغمًا عنه دخل معركتين، معركة وهو طفل ومعركة وهو فتى. وفيهما صرع خصمه بتفوق واضح، فهو لاعب جودو مُحنك.

معركة الطفولة أسقط فيه غريمه مرتين أرضًا فبكى الغريم. الثانية كان حسن في المرحلة الثانوية. خصمه كان شابًا يكبره سنًا. كل ظهيرة يدير دكان بقالة والده، فوالده العجوز يعود لمنزله القريب ليأخذ قيلولته. ابن البقال غبي مفتون بطوله وعرضه وسمنته بما فيها كرشه الواضح. دائمًا يأتيه صديقان من عمره يجلسان بجوار باب الدكان معه. ابن البقال على ثقة بقوته وهيبته، يختار أحد العابرين أمام الدكان ليسخر منه، يختار كبار السن والضعفاء والمسالمين. يومًا وقع اختياره على السائق عم عبده زيادة. سخر من ملبس السائق الكهل. عم عبده ذهب إليه ولعنه، فتضاربا، فوجئ الشاب

بقوة عم عبده، لكنه انتصر بشبابه وأوقع الكهل أرضًا. بعد أن أسرع الناس وأنهوا العركة. عاد عم عبده وحاول ألا يشعر أحد من أولاده، لكن بنت من بناته صرخت عندما شاهدت بهدلة ملبسه ورصدت سجحة على خد أبيها. أسرع حسن حافي القدمين عدوًا لدكان البقالة. ابن البقال وسط صديقيه يضحك سعيدًا بانتصاره. لم يشعر بنفسه إلا وهو يطير في الهواء ويسقط على قفاه. ثم يلوي حسن ذراعه ويقلبه على ظهره، ولم يتوقف حسن من ضربه على قفاه بغرض الإهانة، لم يستطع أحد إنقاذ ابن البقال إلا بعد أن بكي من ألم لي ذراعه، والإهانات التي تنزل على قفاه. اعتذر لحسن بصوت باكٍ عالٍ حتى يرحمه. بعدها نال هذا الشاب الغبي لقب كَمَنْشْ، أي باللغة البولاقية.. تافه.

بعدها ازدادت عائلة عم عبده رسوخًا وأضيف لها هيبة فوق هيبتها القديمة. ولم يجرؤ أحد على تكرار الغزل السريع الموجه للبنتين الجميلتين. أما حسن زيادة، فهيبته كشاب رياضي قوي، صارت تزاحم شهرته كفتى بالغ الوسامة.

عليوة الزوربا عندما سمع بتلك المعركة، احترم حسن زيادة احترامًا عميقًا، وصار حين يقبل عليه حسن للسلام، يسلم عليه الزوربا بيمناه وبيسراه يربت على كتفه تقديرًا وإعجابًا بشهامته، لكنه أي الزوربا رفض كل مرة يطلب منه حسن أو أنا ليأتي معنا لنسهر في مقهى شارع شامبليون، أو نتعاجب بأنفسنا في قعدة في كافتيريا الأمريكين. مساء كنا نجلس في قهوة سلامة، الزوربا وفايق بتاع البنات وأخوه العريض، أنا ونصار معهم ننتظر حسن لنذهب معه

لوسط القاهرة. أتى حسن وسلم علينا باليد، فسلم عليه بتاع البنات بفتور ظاهر. أما الزوربا فقد شد على كف حسن بكفيه، فإعجابه بحسن مستمر. دقائق وطلب حسن من الزوربا أن ينفرد به على بعد خطوات منا. ذهبا. حسن ترجى الزوربا أن يأتي معه ومعي لوسط القاهرة ولأي مكان يختاره. وضع الزوربا يده على كتف حسن ورفض معتذرًا، فهو في أيام شغل الفتونة، ذهب كثيرًا لوسط القاهرة، وقضى أوقاتًا جميلة في الكافتريات الراقية، بما فيها كافتيريا الأمريكين وما شابه، الآن لا يحب، بل لا يطيق الذهاب هناك. طلب من حسن أن يأخذنا أنا ونصار كالعادة، وربما في وقت آخر نتلاقى أربعتنا.

بعد معارك حرب الاستنزاف، ثم عبورنا المعجز لقناة السويس، ثم دخولنا في سيناء واستعدادنا لحرب طويلة، إذا بالثغرة تحدث فتعود كتيبتي لمحاصرتها. جنود أبطال من صاعقتنا ومظلاتنا استطاعا بفدائية أن يوقفوا تقدم دبابات شارون، ويمنعوها من الوصول إلى طريق القاهرة الإسماعيلية، ثم وصلنا نحن وأخذنا مكانهم لنثبت تلك الدبابات. ترعة صغيرة تفرق بيننا وبين جنود إسرائيل. أوامر وقف إطلاق النار، ثم مباحثات كيسنجر/السادات. وهنا لأول مرة نرى وجوه الإسرائيليين بوضوح تام، عاديون جدًا، استغلوا توقف القتال ليطالبونا بالتفاهم! وحين تم الاتفاق بين كيسنجر والسادات، جنود إسرائيل أقاموا ما نقول عنه فرح العمدة! أطلقوا زخات من الرصاص عاليًا، واستمروا في صياح الفرح وغناء الاطمئنان! فعلاً كنا سنعبر تلك القناة الضيقة لنصل إليهم. ونحن أيضًا فرحنا، لكن ليس بمثل حجم فرحتهم.

خرجنا أنا ونصّار من الجيش. لم نُقْتَل ولم نصب جسديًّا، لكن نفسيًّا كنا منهكين تمامًا، وما زادنا تعب نفس، ما جرى في مصر بعد الحرب. هرولة انفتاح اقتصادي تسببت في معاناة. استمر تواصلي مع نصّار. لكن ابن المحظوظة اختفى. تابع نصّار أخباره، فعلم أنه سافر لأوروبا ليعمل وأيضًا لِيَتَسَنْكَح ويَتَشَنْكَح، والتسنكح والتشنكح بقاموس حي بولاق، خلال سبعينيات القرن العشرين، يعبران عن الفُسْحَة والسَرْمَحَة.

نجحنا أنا ونصّار أن نتقابل مرتين معًا، مررنا على قهوة موريس، وجدناه فكانت سهرة طيبة، فصبغة سنوات الحرب لها طعمها الخاص، طعم حلو مر. ومرة ثالثة أنا ونصّار وكان معنا حسن زيادة. نسهر ثلاثتنا. يدعونا حسن زيادة لكافتيريا الأمريكين. نشرب هناك كابيتشينو أو نسكافيه مع كرواسان وباتيه أو قطعتي جاتوه لكل منا. وزايد لا يهمه قيمة الفاتورة التي سنصل إليها، يقول متفاخرًا مازحًا..

-أنتما تحاربان وتدافعان عن الوطن، وأنا داخل الوطن أنام قرير العين. إذن علي أن أدفع ضريبة الوطن، بأن أطعمكما أحسن طعام وأرويكما من طيبات الخمور. هذا أريح معدتكما قليلاً من الفول والفلافل، بل ومن كبدة ابن الوسخة. كما أنظفها من خمر البراطيش التي تتجرعونها. هذا واجب يا صايع منك له.

أجيبه وقد صرنا أصدقاء حميمين..

-كله من تحويشة أبيك، تلك التحويشة التي نالها من تقبيل كف يد سيده الباشا.

يضحك حسن مع ضحك نصّار، ثم يجيبني..

-طب يا فَقْري، فلتنفعك كتب الاشتراكية، مصيرك إن شاء الله في سجون المحروسة.

حين نمل من كافتيريا الأمريكين، نطالب أنا ونصّار بالتحرك لبار سُخن مشحون بالنفوس البشرية الحيّة. نختلف مع زايد الذي يختار لنا بارًا محترمًا، يليق بمستواه الاجتماعي، فهو من أرستقراطية حي بولاق الفرنساوي. نتفق على بار نصف محترم، أي يجمع بين مستوانا المتواضع ومستواه الأرستقراطي بالنسبة لنا.

وتمضي الأيام صعبة. أنا ونصّار بعثرتنا تلك الأيام المرهقة المستنزفة لنا ولغيرنا، دهسنا الانفتاح الاقتصادي، والذي نال نعت.. انفتاح سداح مداح. افترقنا زمنًا. أنا ذهبت للعمل في أسوان، ونصّار يسيح في أنحاء مصر مع الشركة التي يعمل بها. سنين لم نتقابل ثم جاءت فرصة فاجتمعنا ثلاثتنا. انفردنا في بار لنا تاريخ معه. كنا أنا ونصّار مشتاقين لنسمع ماذا فعل ابن المحظوظة مع بنات أوروبا، خاصة الشقراوات منهن.

لكن الذي سافر وعرك الحياة في الغرب المنير المثير بالنسبة لنا ولملايين غيرنا، لم يتحمس للحكي عن تجربة السفر وما فيها من لذائذ. يحدثنا عن نيته في اكتراء شقة في حي الزمالك، فرحنا من المفاجأة ونسينا مؤقتًا ما نريد سماعه. ابن المحظوظة استطاع تحويش مبلغ محترم، ثم إن والديه قد ماتا وصار وحيدًا في البيت، فأختاه كل منها في بيتها. قرر بيع البيت. وافقناه على ما يفكر فيه، فهذا حلمه من

سنوات الطفولة والفتوة، ثم إن مستواه الآن كمهندس ناجح مُحَمّلُ بالخبرات المهنية، لم يعد ينسجم مع بولاق الفرنساوي.

أنا وحسن زيادة وقد لاحظنا أن نصار فقد بعض وزنه، وأن لونه القمحي غزاة طيف من الاصفرار، كتمنا شفقة تكاد تتربع على ملامحنا. في كافتيريا فاخرة، أصررنا أنا ونصار على الاستماع لحسن، في حكايات عن النساء الغربيات. تكلم حسن زيادة عن شقائه ليستطيع إطعام نفسه أولاً! تكلم عن المتاعب فالحياة هناك ليست تسنكحًا وتشنكحًا فقط كما نظن. وأنه تعب للغاية وعمل في أعمال بسيطة لا تليق بشهادته الجامعية، بل عمل في أعمال أقل مستوى من عمل والده، كسائق عند الباشا، وعندها تذكر أباه باحترام أكثر. باختصار تمت بهدلة حسن زيادة طوال أشهر في بلاد الغرب التي لا تعرف الدلع، ولا ترضى بالفهلوة المصرية. سنة بالتمام والكمال وزيد عليها ثلاثة أشهر، حتى تمكن من إمساك خيط الأمل.

بعد أن استمعنا له طويلاً يحكي عن فترة الشقاء، قاطعناه وأصررنا على ترك الغم والهم فقد تجرعنا منه الكثير داخل وطننا، والغم والهم خارج الوطن كما حكى عنه، يهون مقارنة بما هو في الداخل. فحسن يعرف مرض كبد نصّار وشقاءه في العمل في بلاد الخليج نجار مسلح ليطعم زوجته الحامل، ويعرف أنني صرت موظفًا باهتًا في ديوان حكومي فقري، فمرتبي يقال عنه (بدل ما نشحت)! فأي شقاء في بلاد الجاتوه يحاول حسن إقناعنا به؟ أصررنا أن يحدثنا عما نريد سماعه، يحكي لنا عن ريش النعام وعبق البارفان. عليك أن تأخذنا يا صديقنا المحظوظ مع تدخين السجائر الأجنبية التي

أتى بها حسن، وكؤوس الكابتشينو والقهوة الأمريكاني، لنقف في شرفة عالية تطل على ما وراء البحر الأبيض، لنرى بلاد الحلم والعِلم التي كرّهونا فيها حقًا وظلمًا، لكننا أجيال بعدها أجيال، نحلم بالعبور لها والعيش فيها.

هيا احكِ لنا باستفاضة عن النساء الأوروبيات. فأنت ابن المحظوظة الذي أفلت بحظة من التجنيد ليكون مثلنا، فتركنا نحن في الحرب، وزار العديد من تلك البلاد المُرجوة. وفي كل بلد يصادق أكثر من واحدة، فلونه الأسمر الخفيف وجاذبيته الشخصية مع خبراته مع بنات بولاق الفرنساوي ثم بنات الجامعة، كافيتان في هذا المجال، لماذا؟ لأنه وقتها لم تكن هجرات السود والسمر قد تكاثفت ألوفًا مؤلفة داخل معظم بلاد البيض.

سأله نصّار..

-حدثنا عن أجمل نساء الغرب؟

-جميعهن حلوات.

قلت له..

-زدنا أيها البخيل.

نتوقع الإجابة باختياره نساء السويد وما حولها، فقد مكث هناك شهورًا طويلة. لكنه فاجأنا بما لم يخطر لنا على بال، أو بما لم يقترب من مخيلتنا بتاتًا، ببساطة وثقة قال..

-نساء اليونان.

ولما سفهناه تسفيهًا، أكمل..

-أتريدان رأيي في النساء الجميلات بعد جميلات اليونان؟

-قل؟

-نساء بولاق الفرنساوي.

اتهمناه بأنه يسخر منا. لكنه كان صادقًا وشرح لنا محاولاً تقمص دور الفيلسوف، علينا نحن السذج معدومي الخبرات..

-الحياة في مكان واحد، تصيب بالاعتياد فلا ننتبه لعطاءات جمالياته. وجمال النساء المبهر حين نعتاد عليه يصير معتادًا ويفقد الطزاجة، بل ربما وصل الاعتياد إلى حالة ملل. لذا يسيل لعابنا على البعيد الذي لم نجربه، ظانين أن نساء الغير أجمل. أنا بعد علاقاتي، أجد في فتيات بولاق جمالاً خاصًا لا يمكن أغفاله إلا من مغفلين مثلكما. اسمعا يا جاهلان.. الجمال متعدد. وتعدد الجمال يزيد الجمال جمالاً.

لم تعجبنا تحليلاته فنحن في اشتياق شبقي لنساء الشقر، صافيات البياض بعيدات تمامًا عن السمار بكل درجاته. لذا لعناه وأكدنا أنه فليسوف خبيث جاهل فاشل، لكنه ابن المحظوظة أكد ما يقول. ولتأكيد جديته فيما يقول فاجأنا..

-أتمنى أن أتزوج فتاة بولاقية. حتى لو كان تعليمها مجرد القراءة والكتابة.

ضحكنا وذكّرناه بحلمه القديم، أن يسكن الزمالك ويتزوج من الزمالك. فأجاب..

-السكن حققته، لكن الزواج من الزمالك لم يعد من أهدافي. بل أريد الهروب منه.

افترقنا سنتين وشهور، ثم التقينا أنا ونصّار. ذهبنا لحسن زيادة في حي الزمالك! سبحان مغير الأحوال. شقة حسن في الدور الأول علوي، مرتاحة رائعة. تناولنا طعامًا أتانا من مطعم شهير، ثم في غرفة حميمية جلسنا ندخن وشرب الشاي، تلك الغرفة بها نافذة تطل على منور البيت، والمنور مثل مكبر الصوت، يجمع أصوات الشقق العالية كلها، ليسمعها للشقق كلها، لذلك أقلقنا صوت عال متشنج لامرأة. صوتها ممرور للغاية. ولما حاولنا تغيير الغرفة، رفض حسن زيادة وأصر أن نبقى. أنا ونصّار أحسسنا أن حسن زيادة يكتم ضيقًا في صدره. معًا نعرف زيادة وموغلين في خفاياه. هو يريد أن يحكي، لكن بداية الحكي مؤلمة. يكتم أدمعًا حاولت الانسياب. عرفنا أنه في مشكلة ليست بالهينة. قلقنا عليه واستكملنا شرب الشاي، ثم حادثه نصّار..

-ماذا بك يا زيادة؟

..-

-لن تجد أقرب لك منا.

-متأكد من هذا.

قلت له..

-إذن فضفض عن صدرك واحكِ لنا.

أشار للسقف. لم نفهم. أشار للمنور ولأذنه لنتمعن في صوت الزعيق. أنصتنا.. المرأة توجه كلمات حادة لمن لا نسمع إجابته، إنهم أطفال. أطفالها.

أدركنا أن تلك المرأة هي سبب أسى صديقنا. نظرنا له لنفهم الحكاية. هز رأسه حزينًا وقال..

-إنها هي. مشكلتي. إنها من أتعبت عقلي وأوجعت قلبي. لي في هذه الشقة سنوات قليلة. ومن سنتين تلك المرأة صارت عشيقتي. لم أسع أنا إليها، بل هي التي هاجمتني بإصرار، فقلت في نفسي.. جسد أنثوي إضافي مؤقت وننتهي، لكن علاقتنا استمرت ولم أستطع قطعها، بل إنني توقفت عن التفكير في الفتاة التي ستسعدني وأسعدها، وهذا كما كان حلمي بعد عودتي من الغرب، أن أتزوج وكفاني سرمحة مع النساء.

تلك المرأة الهادرة، من اليوم الأول وأنا أسمع شجارها مع زوجها ليلاً، وشخطها المستمر الموجه لابنيها. أشعر بصوتها العالي والمتألم القاسي والمقسو عليه معًا. أحس بما في الصوت من تنغيم رخيم وتلوين متعدد ودرجات علو وهبوط. زعيقها حين يعلو يكون أكثر

من نشيج يتلوى. عرفت بسهولة لماذا هي في عصبية زائدة وثورة دائمة، أكيد حياتها الجنسية مضطربة. إنها امرأة في عذاب.

وجه حسن كلامه لي..

قرأنا معًا مسرحية ثم شاهدناها فيلمًا، مسرحية تنسي وليامز.. قطة فوق سطح من صفيح ساخن. بطلة الفيلم اليزابيث. اليزابيث التي كانت تقوم بدور المرأة الناضجة الجميلة المحرومة جنسيًا. أطياف اليزابيث في هذا الفيلم، جاءتني وتداخلت مع جارتي المتشنجة، فجارتي بالفعل جميلة، وإن كانت أقل جمالاً من اليزابيث وأثقل وزنا منها، إن اعتبرنا جزافًا أن اليزابيث في هذا الفيلم بها أي درهم لحمي أو شحمي زائد. الممثل في هذا الفيلم كان بول نيومان. لكنه مختلف تمامًا عن زوج جارتي. نيومان وسيم معتدل الجسد، بعكس الزوج مترهل الجسد، بالإضافة أن ملامحه غير مريحة. المسرحية والفيلم بينا تمامًا ما يقصده المؤلف تينسي.

حسن يوجه حديثه لكلينا..

المرأة المحرومة بالقطع متألمة ألم مستمر وإن كان لا يبدو لكل غليظ حس. مثلها مثل قطة وضعوها على سطح صفيح ساخن، لا تستطيع القطة أن تبقى في اتزان، ولا في اطمئنان، توترها يظهر في كل التفاتاتها وفي جميع أوضاعها، بل في طبقات صوتها وتلويناتها. والنساء يشعرن بحال المرأة القطة المحرومة أكثر من الرجل، القطة المحرومة، لن تستطيع أن تبقى هادئة راسخة، لا ولا تستطيع أن تكون امرأة هادئة عادية، كما يطالبها مجتمعنا الشرقي الذكوري أن

يكون، فجسدها ملسوع من الصفيح الساخن الذي لا يبرد ولن يبرد إلا بالارتواء، إن الصفيح الساخن هو جسدها، جسدها وليس صفيح خارجي.

الغريب أن صوتها حين تتشاجر مع زوجها وابنها نهارًا، يعطي أحاسيس غير التي تشع منها ليلاً! نعم هذه الأحاسيس التي تصلني ليلاً من صوتها، غير ما أحسه نهارًا من طريقة زعيقها وهي تعنفه وتلوم ابنيها، ولدًا في السادسة وبنتًا في الرابعة. وأيضا زعيقها لزوجها له شجن مغاير لما يعتريها وهي تزعق لطفليها.

لم أكن أعرف أن تلك المرأة تتابعني وتراقب مواعيدي. ولم أعرف أنها قررت اختياري المنقذ من حرمانها الجسدي والنفسي، وأنا منذ سنوات أبحث عمن تلائمني من الفتيات، أريد الاستقرار بعد جولاتي في البلدان المتنوعة مثل ابن بطوطة، وجولاتي مع النساء مثلما يحكون عن دون جوان. وحين اقتربت من الفتاة التي اخترتها واختارتني، جاءت تلك الجارة فقلبت حياتي رأسًا على عقب. دوختني بعاصفتها التي لا يصدها صد. هي امرأة. بمعنى امرأة. بمعنى أنها ليس لها ثان، ليس لها من تشبهها، لا في الشرق ولا في الغرب، وبالطبع ولا في بولاق الفرنساوي. ليست الأجمل ولا الأكثر تجربة ولا أي شيء ملحوظ، فقط بها ما لفحني وأسرني وسحرني، وكأنها أصلاً كانت مخلوقة لي، وأنا مخلوق لها، لنسعد.. لنشقى.. لنتوه. لا أعلم.

-معقول؟!

-هل أحببتها؟

-لا حب. لا جنس. ولا أي حاجة أعرفها. هي إيه؟ أنا إيه؟ مش عارف. بس أحس باللي مش قادر أشرحه. إعصار فيه نار نسف باب جرانيتي كان مقفول عليّ، ومكنتش حاسس بوجوده. نسفته ودخلت وقعدت!

مباشرة أتاني خيال الزوجة الثانية للزوربا، المعلمة فلّة. أبعدت الخيال وسألت حسن..

دقائق وننشغل بشرب رشفات من الشاي، لكن كل منا يعيش تلك الحكاية الغريبة من حسن، وكل منا في قلق عميق عليه. استأنف حسن الحكي..

-بعد شهور من سكني لشقتي هنا. ع الصبح. رايح لشغلي. راحت واحدة جميلة الوجه عادية الجسم نازلة من السلالم. قلت يبقى هي. بصت لي في تحد. جت لي مباشرة وزقتني بعيد عن الباب ودخلت. شدتني من دراعي لجوة وقفلت الباب علينا! مش متخيل اللي بيحصل. مندهش زي الولد الخام. حضنتني وباستني حتى سخنت، وحصل اللي لازم يحصل.

نايمين مرميين على السرير. وبعدين كإن جسمنا اتعرّف على بعض من بعد طول غياب. كإن كل نفس لقت وليفها. بجسمنا حسينا باللي مش مفهوم. وكإن جسمنا له حوار خاص، وفهم خاص، ومفيش عقل ليه دعوة بيهم! ليه؟ إزاي؟ محدش يسألني.

نسكت أنا ويسكت نصّار ويستمر حسن في الحكي..

-عنفوان كان مكتوم في جوف جبل. ثم جه نيزك من الفضاء البعيد وضرب قمة الجبل، فانشرخت الفوهة وما تحتها، فانطلقت الحمم المكبوتة. انطلقت مشاعري النارية جسدية ونفسية. أنا حسن زيادة. أنا حسن زيادة يا نصّار يا للي قلت علي ابن المحظوظة. ابن المحظوظة اللي مادخلش الجيش وماحاربش زيكم سبع سنين. ابن المحظوظة اللي جيبه دايمًا عمران بالفلوس، وسافر بلاد الله الباردة والسخنة. بلاد شعوب شقرا وبلاد شعب سمرا. دقت كل المتع. حاليًا واقع في إعصار لا فهمته ولا حفهمه. خايف. مرعوب. أعمل إيه؟ استسلم واربط نفسي بيها؟ أهرب منها وأسيب شقتي؟ بس يمكن.. يمكن تحصل حاجة تهلكني ولا حاجة تنسفها. ولا تدهسنا أحنا الاتنين.

افترقنا. تركناه ليتلقى وعده، فهل في أيادينا حل؟ هل نمتلك عصا سحرية فننقذه من حيرته التي ربما تقوده لغرق من نوع ما؟ نهايات لقاءاتنا مع ابن المحظوظة كانت دائمًا حلوة، هذا اللقاء الأخير نهايته مرة.

(((((())))))

13-مشهد الوداع من ريالتو وبولاق الفرنساوي

غدًا سأسافر للقاهرة.

أسير ليلاً في شارع صفية زغلول. ذهبت إلى شارعي السكندري المفضل شارع صفية زغلول. مررت أمام سينما مترو، ثم سريعًا أمام سينما ريالتو. ثم شارع السلطان حسين. تقدمت ومررت على سينما استراند مع تقاطع شارع سعد زغلوب ثم البحر أمامي. فترة أسرح مع الأمواج البطيئة المملة. عدت لشارع صفية زغلول. وقفت أمام سينما ريالتو. أصبحت قبيحة. المصيبة أنها تعرض فيلمًا مصريًا عن حرب أكتوبر. فيلم سخيف حقير. وصل الإجرام لهذا الحد؟ المتاجرة بدمائنا ونصرنا وتوليف فيلم ليكسب بعضهم شهرة أو مالاً، أو الاثنين؟ دموع انسكبت رغمًا. جلست على درجات سلمها الأمامي. أصدقاء الحرب أتوني. جلس الشهداء حولي والذين مازالوا في عذاب الحياة وقفوا أمامي، جميعهم في بياض سحابي شفاف. لا كلام. فقط نظرات لوم لي. أأدعي أنني أديب، وحتى الآن لم أكتب عنهم؟! باكيًا أحكي كيف أنني كنت أعد لرواية ملحمية عظيمة تضاهي وتتفوق على الحرب والسلام. فأنا من حارب ولست الذي سمع عن حرب سابقة وكتب. لم أكن أمتلك آلة كاتبة. كتبت عشرات الصفحات عن زملاء الحرب، وعشرات عن الأحداث مثلها عن المعارك، سواء الاستنزاف أو العبور. عشرات مختصرات حرب 48 و56 و اليمن ثم

بالتفاصيل بداية من حرب 67. كنت غاطسًا في التحضير، لكن كنت أحتاج كتبًا، كتب قيادات جيشنا وجيش إسرائيل. وجدت مذكرات قائد مصري. المذكرات بمائة جنيه، وأنا مرتبي أقل من مائة جنيه! تعبت. تعبت. زوابع في صحافتنا.. من يسمح له بكتاب رواية الحرب؟ المتصدرون كاتب سيناريو شهير واثنان من المراسلين الحربيين لا يقلون عنه شهرة. الاثنان كانا على مبعدة من القتال، بعدًا يؤمن لهما حياتهما، أنا كنت في الأتون، لكن أنا أديب مغمور. وفي نفس الوقت كان صدّام يجمع الأدباء ويأتي بهم لبغداد، ويسكنهم في أفخر الفنادق ليكتبوا عن حربه هو، عن حرب عراقه هو. وأنا لا أستطيع استكمال التحضير لكتابة حربي أنا، حربي وطني أنا. انهرت مزقت كل أوراقي وبكيت كما لم أبك من قبل. انهرت وأنا الذي تحملت سبع سنوات قتال شرس وتدريب لا يقل قسوة. انهرت وبقيت محبوسًا أيامًا ثلاثة في شقتي الضيقة التي في بيت يشاور نفسه متى يقع بنا.

جالسًا على سلم سينما ريالتو. لا يهمني من يمرون أمامي وينظرون لي في شفقة، أو في حيرة. أحبابي رفقة السلاح تحوطوا حولي يكفكفون دمعاتي، ويربتون على كتفي لأهدأ. يصدقوني فعشرتنا الطويلة جعلتنا نعرف ونفهم بعضنا بعضًا. قدروا الحزن الذي أنا فيه، فالحزن واحد فينا. الحزن طعمه الماسخ في فمنا، طعمه اللاذع في قلوبنا، شعاعه القاتم في عيوننا. ساروا حولي وأنا عائد لبيتي.

انصرفوا أشباحًا في لون أصفر خفيف يقارب صفار الرمال. ابتعدت تمامًا عن ريالتو، ابتعدت تلك السينما التي تنهار دوامًا مثلما غيره، وسيتم هدمها بعد سنوات.

النهار التالي في شوارع وسط القاهرة أسعى ولا أضيع وقتي. أريد أن اطمئن على طباعة كتابي الجديد. كنت قريبًا من بولاق الفرنساوي. أرجئ البحث عن عليوة الزوربا. أكيد سأسمع عنه خبرًا سيؤلمني، أو سأراه في حالة تؤلمني. يااااه. ألم يكفني ما كتبه نصار عن صديقنا حسن زيادة. ذهب لسكنه. لكن البواب قال له إن الباشمهندس حسن عزل وترك العمارة. وقال إنه لا يعلم عنوانه الجديد. يتكلم البواب معه بامتعاض. ثم أقبل عليهم شاب كان خارجًا من العمارة وعرف أن نصّار يسأل عن حسن. قال له شامتًا..

-غار في داهية، وريح العمارة من لغوصته. وعشان تتطمن، عشيقته كمان غارت معاه.

نزلت من بيت خالتي العجوز حاملاً حقيبتي الصغيرة. أسير مسرعًا في بولاق الفرنساوي ودخلت شارع 26 يوليو. أنهيت أمرًا ضروريًا. ذهبت لمقابلة الأصدقاء الأدباء. أخذنا الحوار للقضايا التي لا يريدها البعض أن تنتهي. السادات وعمايله. قلت لقد سامحته على فصلي من عملي وأنا أحارب في الاستزاف، سامحته لجرأته في حرب العبور. وعاتب عليه على ما عانيناه من بلاء الانفتاح، لكن كيف أسامحه وقد أطلق علينا جحافل المتأسلمين؟ قاطعني صديق وقال..

-ثم قتلوه.

سألني أحدهم يقصد إثارتي..

-لسة مفيش مذيعين ومذيعات في قنوات مصر الفضائية؟

-ولا الأرضية يا خفيف. ابن عمي اللي اقترح استخدام اللغة النوبية شفرة في الحرب، واستخدموها بالفعل بواسطة جنود نوبيين مصريين، وكانت من عوامل النصر، ولا حد سأل فيه.

قال السائل..

-كفاية عليهم قرروا علينا الشيخ اللي سجد لله شكرًا، عشان مصر انهزمت في سبعة وستين!

انتقل الحوار لما لا بد منه. اتفاقية كامب ديفيد وتحرير سيناء، هل هي خطوة هائلة في صالحنا، أم هي انحراف يضرنا نحن والبلاد العربية؟ الأغلب ضد الاتفاقية ويعتبرون تحرير سيناء تحريرًا ناقصًا. أنا جندي سابق، حارب لسنين وفقد العديد من زملاء الحرب، وأعلم تكلفة الحرب الدموية.

أصر على رأيي بأن تحرير سيناء، مكسب هائل لنا، وأنه في اليوم الذي تحررت فيه سيناء، تأكدت أن دماء زملائي الشهداء مثل قائد كتيبتي عادل والرائد عمر والرقيب مسعد والعريف حسين والعريف فاروق والجندي برهومي والضابط لملوم، كل تلك الأرواح وغيرها، وذراع صلاح المبتورة ومثيلاتها لم يضيعوا هباء. بتحرير سيناء تأكدت أن عطاءاتهم أثمرت تحرير الوطن.

أسرع في مشيي ومعي حقيبتي المتواضعة. الحوار المتشنج لم يرحني. اثنان من المعارضين للاتفاقية مقتنعان بما يبدوانه من أسباب اعتراضهما، لكن أغلب المعارضين لتحرير سينائنا لم يحاربوا ولن يحاربوا، فقط يريدون الظهور بمظهر المعارضين! هم عبيد

الشعارات التي لم تقتل ذبابة. هم بعيدون عن ملايين الشعب التي فرحت بالاتفاقية وبتحرير الأرض وإبعاد شبح الحرب ولو لسنين.

وإذا بمن يناديني. انظر.. شاب ما بين السابعة عشرة والتاسعة عشرة، ومعه فتى في حوالي الرابعة عشرة من عمره. الاثنان ينظران إلي في حب ودهشة معًا. لم أتكلم فأنا لا أعرف من هما. ضحكا وسلما علي باليد وهما في شوق ومازالت الدهشة فيهما، وأنا أيضًا في دهشة، فمن هما؟ نظرت لأولهما متسائلاً من أنتما؟ فقال أحدهما..

-أنا ابن نصار. ودا ابن ناهد.

لم أصدق. ثوانٍ وأنا صامت ثم فجأة احتضنتهما بقوة فرحان. ثم حديث سريع عن فرحتي بهما، لم ينتظر ابن ناهد وقال إن أمه تحكي عني كثيرًا، فقلت هل قالت لك عن العضة؟ ضحك وقال بالطبع. وهنا نظرت إلى ابن نصار وقلت له..

-أبوك عامل إيه؟

بُهت من السؤال وبقي صامتًا. لم يجبن ولم يجبن ابن ناهد أيضًا. أنا أصبت بالرعب.. تُرى ماذا حدث لنصار؟ صحت في ابن نصار متوقعًا قنبلة تفجرني..

-إيه؟

قال حزينًا..

-مات أبي.

ثوانٍ لم أجب. انتشلت من المكان والزمان. لا أراهما ولا أرى أيًّا من السائرين حولنا. نصار مات! برهة لم أستوعب. نصار مات فصرخت صرخة مكتومة وضربت بكفي جانب وجهي ونصف العلوي ينحني للأرض ورعشة في ساقي وشامل جسدي صار في حالة هلامية وينهار. أمسكاني من جانبي وقاداني لجانب الطريق. مقعد لا أعلم كيف أتى. أجلساني ومازال نصفي العلوي في انحناء ومازال كفاي يخفيان وجهي. لا أريد أن أرى كل تلك القسوة التي نحياها. نصار مات من قبل أن أحقق أمنيتي، بدعوته هو وعائلته ليبقى في بيتي أسبوعًا على الأقل. مات الحزين المتهالك، مات من قضى سنوات يحارب وكبده متعب. مات أحد أحب أصدقائي، ليس في فترة الحرب فقط، بل على طول حياتي. مات نصّار!..

أجهشت بالبكاء.

(((((٭٭٭)))))

بولاق الفرنساوي

بولاق الفرنساوي ذاك الحي العريق كان ملجأي ومأربي خلال فترة تجنيدي. هذا في نهايات ستينيات القرن العشرين وبدايات سبعينياته. حفظت المكان من كثرة تواجدي فيه. وزرت بولاق الفرنساوي كثيرًا بعد انقضاء سنوات الحرب، زيارات خاطفة ذوات شجون. ومع كل زيارة أجد التبديل والتغيير للأسوأ، كما أحس بالتغيير، تغيير في شكلي وفي نفسي. تغيير في تفكيري. فالشعر الأبيض والتجاعيد، وترهل الجسد وبروز الكرش الخفيف، وتغييرات ربما أكثر منها داخل النفس وداخل العقل. أي أن التغيير في أنا كما التغيير في بولاق الفرنساوي.. للأسوأ. وكانت الحياة الأدبية التي عشتها تسير أيضًا من سيئ لأسوأ.

مكتبة نوميديا

منشورات إبييدي

9 789776 892415